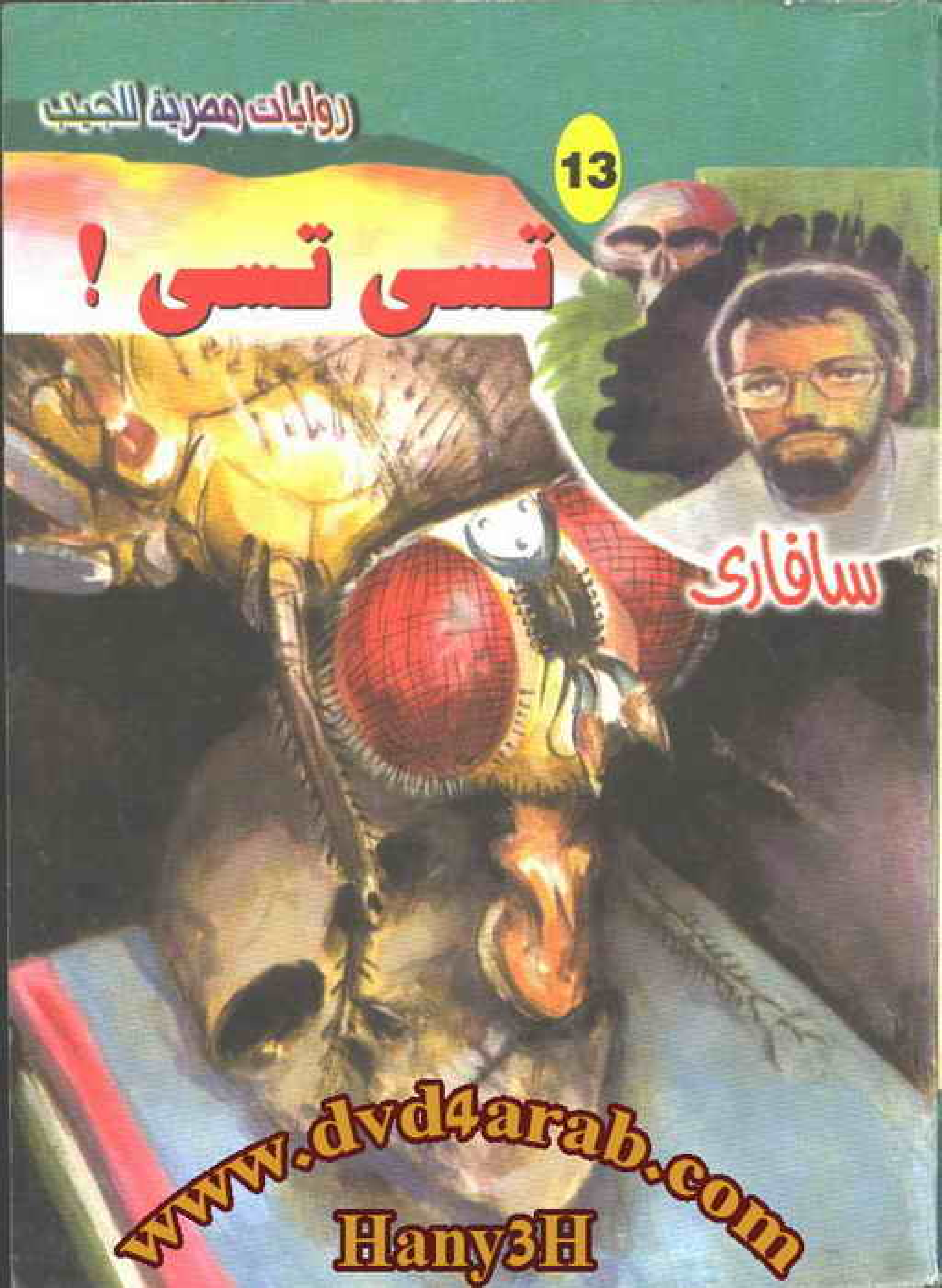


روايات مصرية للجيب
13
تى تى !
سافارى
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافريّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًّا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

تمهيد

فى الصفحات التالية أحاول أنا البروفسير (موريس ج. بارتلييه) رئيس وحدة (سافارى) الموجودة فى (أنجاوانديرى) ، أن أضع النقاط فوق الحروف بالنسبة للأحداث المؤسفة غير المتوقعة التى حدثت فى وحدتى فى الفترة السابقة ، والتى لم تعلن عن نفسها إلا بعد عامين ونصف .

فى البداية يجب أن أؤكد حقيقة يعلمها جميع السادة العلماء والإداريين والممولين الذين شرفونى بأن أكون رئيسًا لهذه الوحدة : أنا لست مسئولاً عن كل البحوث العلمية التى تجرى ها هنا .

يبدو هذا غريبًا لكنه الحقيقة .. من العسير أن تلاحق ما يقوم به نحو مائة طبيب فى معاملهم وفى غرفهم الخاصة .. ثم إننى لا أملك صفة تفتيشية ما تسمح لى باقتحام خصوصياتهم ..

أحيانًا ما يأتى الطبيب إلىّ طالبًا أن أعينه بنفوذى الإدارى كى يجرى هذه التجربة أو تلك ، عندها أطلب

منه بروتوكولاً كاملاً به تفاصيل ما ينوى عمله بالضبط ، وبالطبع أركز انتباهى على النواحى المتعلقة بأخلاق المهنة مثل التجربة على المرضى دون موافقتهم ، أو تعذيب الحيوان ، أو مخالفة ما هو معلوم من فن الطبّ ..

قد يكون حجب علاج الدرن عن مريض الدرن أمرًا له مبرر علمى ما فى ذهن الباحث ، لكنه بالتأكيد يخالف أبسط قواعد الطب والإنسانية . بروتوكول كهذا لن أسمح به أبدًا ، لكنى لن أعرف ما إذا قرر الباحث أن يجرّبه على مسئوليته وبعيدًا عنى . وفى اللحظة التى أتبين فيها شيئًا كهذا يكون عقابى صارمًا ضروريًا .

لا أدرى ما إذا كانت هذه النقاط واضحة أم لا .

والآن نتحدث عن الحادث الأخير موضع هذا التحقيق ..

إن أطراف الحادث موجودون ، وقد قمت بإجراء تحقيق مفصل مع كل منهم ، وقد وقع كل منهم على أقواله .

الحقيقة أننـــى لا أدرى لمن أوجه اللــوم ، أو ألقى بمسئولية هذه الكارثة . كلهم ضحايا ظروف قهرية تواكبت وتحركت فى اتجاه معين ليخلق أزمة ..

ـ (د. هيليــن ماكنلــى) : خبيـــرة الطفيليـــات الأسكتلندية . لا غبار عليها من ناحيــة السـلوك أو المستوى العلمـى ، ولست ميالاً إلـى اتهامهــا لأنهــا ما كانت تتوقع أن يحدث ما يحدث .

ـ (عـلاء عبـد العظيم) : طبيـب مقيـم مصـرى الجنسية . لـو تغاضينا عن بعض الاندفــاع وخــرق الشباب ، وميل واضح لمعاداة السامية يظهر فقط عند تعامله مع الطرف الثالث ؛ يمكننا أن نقول إنـه شـاب نشط سريع التعلم ومخلص للوحدة . ثم إن ما حدث لم يكن متعمدًا على الإطلاق ، وقد أوشك هو نفسه على فقد حياته فى هذه الأحداث .

ـ د. (إبراهام ليفى) : المختص بأمراض العيون . إسرائيلى الجنسية . هنـاك كثـيرون لا يميلـون إليـه بسبب طباعه الملتوية نوعًا ، لكنى لا أحمل له ضغينة معينة ، وما زلت أعتقد أنه لا دور له فى هذه القصة . لقد حدث ما حدث عن طريق الخطأ .

ـ د. (مأمون الجندى) : خبير حشرات مصرى الجنسية . لم ألتق به ولا أعرف سوى أنه بـارع فـى عمله . لقد أرسل لى تقريرًا مطولاً ، وقـد وجدت أنـه من خبراء الصحـة العالميــة المعتمديـن . أعتقـد أن شهادة رجل كهذا جديرة بأن تتضمنها هذه الأوراق .

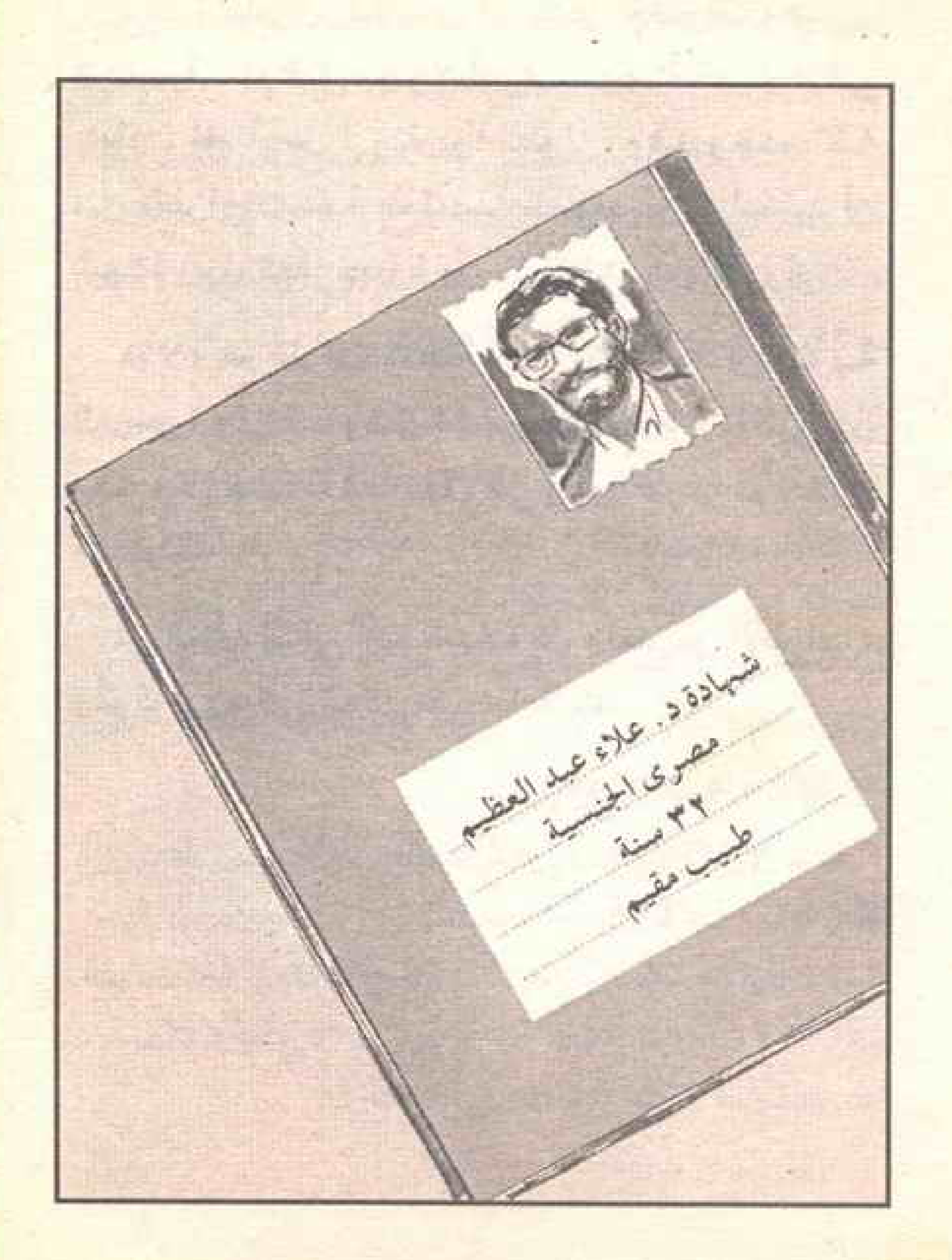
هؤلاء هم أطراف القصة ، ولو رأى أحد أن نظريـة المؤامرة واردة ـ وكـل النـاس يرونهـا واردة فـى كل وقت وكل حدث ـ فأنا ميال إلى وجود طرف لم تذكـره التحقيقات .

فى الملف التالى أقدّم شهادة كل واحد من الأطراف ، وأترك لرؤسائى الحكم على ما حدث .

موريس بارتلييه M.D

رئيس وحدة سافارى ـ ٤

١٩٩٩



- ١ -

كى أقدم تفسيرى لكل ما حدث ، لابد لى أولاً من أن أخبر هذه اللجنة الموقرة بتفاصيل إجازتى الأخيرة ..

★ ★ ★

حين جاء شهر (يوليو) بعد انتظار طويل ؛ كانت كل محاور حياتى تتجه إلى هذا الموعد ، كما يحدث حين تحرك الريح صفحة الماء وتشعر كأن كل قطرة ماء تتحرك بإصرار إلى نقطة واحدة .. إلى المصبّ ..

لست ميالاً إلى الرطانة والغنائية الزائفة ، فالحقيقة هى أننى تركت وطنى لأنه ضاق على أمثالى ، ولأننى لم أشعر لحظة واحدة بأنه يحبنى كما أحبّه ..

لكن الوطن نوع من الانتماء البيولوجى لا حيلة لك فيه ولا إرادة .. نوع من قوانين الفيزياء الجبرية .. لماذا يتجه طرفا الإبرة الممغنطة نحو الشمال والجنوب ؟ لا علاقة لهذا بالعواطف ولا الغنائية .. إن

البوصلة لا تهيم حبًا بالشمال ولا تكتب القصائد عنه .. هى ـ فقط ـ لا تعرف كيف تفعل أى شىء آخر غير هذا الذى تفعله ..

ربما كانت أهمية الوطن تكمن فى وجود أحبائك فيه : الأسرة .. الأصدقاء .. إلخ .. لكنى لا أعتقد أننى سأكون راضيًا لو جلبت كل أحبائى ليعيشوا معى هنا فى (الكاميرون) .. ثمة جزء ما ينقص المعادلة كى تتزن .. وهذا الشىء اسمه تراب الوطن ..

لا أدرى إن كنت قد بالغت فى العاطفية ، لكنها الحقيقة .

أقول إذن إن شهر (يوليو) قد جاء بعد انتظار طويل .. وأنا ـ كما يعلم أعضاء هذه اللجنة ـ لم أقم بإجازتى السنوية منذ عامين .

كان الأمر يشبه ما يقوم به الجنود العائدون إلى أرض الوطن بعد حرب طويلة مرهقة ، وقد رحت أمنى النفس بكل تلك المتع التى تنتظرنى لدى العودة .. متع لا يمكن لعقل بشرى مهما جمح أن يتخيلها : ساندوتش طعمية من (حودة) .. جلسة على المقهى

أثناء مباراة الأهلى والزمالك وسط الشجار ، وعبارات السباب التى تنهال على مشجعى الفريق المنافس .. لا بأس .. سينما (الزيتون) ـ ترى هل ما زالت هناك ؟ ـ والشجار من جديد مع رواد الترسو الذين يلقون أعقاب السجائر على رواد الصالة .. أكلة (كوارع) ـ أكارع للدقة اللغوية ـ فى (الحسين) .. والوقوف فى شرفة دارك (بالفانلة) تراقب الشارع وتداعب رأس قطتك ذات اللون العسلى .. من يدرى ؟ لربما وصل بى الجموح إلى حدّ الذهاب مع (الأهلى) لحضور مباراته فى (بورسعيد) .. سأتلقى علقة لا بأس بها طبعًا ، لكن ما طعم كرة القدم من دون أن تُضرب ؟

كل هذا وأكثر ينتظرنى ، والأروع أنه بعد أيام .. ربما ساعات لا أكثر ..

★ ★ ★

ودعت الرفاق .. من أحببتهم وأحبونى وعانيت معهم وعانوا معى .. وانطلقت الطائرة فى رحلتها الرهيبة نحو مصر ..

حسن .. سأحاول أن أكون موضوعيًا فى شهادتى ، ولا أضيّع الوقت فى وصف لقائى بأسرتى ..

كان أخى ينتظرنى فى المطار ومعه (أشرف) أعزّ أصدقائى .. إن سيارة (أشرف) من طراز (فيات) .. عتيقة جدًا ولربما كانت أول سيارة (فيات) تدخل مصر ، لكنها السيارة الوحيدة المتاحة للأسرة على كل حال ، ولم يحدث قط أنها انفجرت أو تحولت إلى غبار بينما نحن على طريق المطار .. هذا مطمئن كما ترون ..

كان أخى كما هو تمامًا ، بينما (أشرف) صار بدينًا كشاحنة ، وبدأ الشعر يسقط عن مقدمة رأسه .. علامة على الصلع المبكر فى سن الثلاثين لكنه يراها دليلاً على الرجولة الفذة ..

بعد العناق والتحيات والاشتياقات ، انطلقنا إلى دارى ..

وكالعادة كانت والدتى فى أسوأ حال صحيًا .. لم تعد تمشى تقريبًا ، وصارت حدقتاها فى لون الرماد

من فرط داء (الكاتاراكت) .. لكنها تخشى الجراحة .. بالطبع كان هناك ذلك اللقاء الحار الدامع ..

يقولون إننا أبناء البحر الأبيض المتوسط مفرطون فى عواطفهم ، لهذا لن أخوض فى التفاصيل ..

لن أخوض كذلك فى تفاصيل محاولاتها لإقناعى بالزواج .. فهى لن تكف عن هذا أبدًا ، وهى من جيل يعتبر بلوغ الذكر سن الثلاثين دون زواج كارثة .. لقد فاته القطار بلا قضاء ولا إبرام ..

هى تعرف أن ظروفى المالية طيبة .. لولا بقية من تحفظ لقلت إننى الآن ثرى .. وهى دائمًا جاهزة بعروس ابنة حلال طيبة وسيدة بيت .. كل هذه التفاصيل لا تهم اللجنة الموقرة بالطبع ، لكنها نوع من نقش السجادة فى قصتى ، ولو لم أحكها لبدت السجادة جرداء عارية بشكل مروع ..

المهم أن الليل لم يأت إلا وكنت قد نفذت أكثر أحلامى الجامحة المتمردة : أكلت الطعمية عند (حودة) .. ما زال هذا النصاب يحاول أن يخدعك ولا يضع (الطحينة) فى الساندوتش ، لكنى كنت له بالمرصاد ..

دخلت السينما مع رفاقى وتشاجرت كثيرًا جدًا ، ثم جلست فى المقهى مع حفنة من أبناء الحتة .. كلا لم تكن هناك مباريات بالطبع ..

وأخيرًا وفى ساعة متأخرة من الليل ، بينما (جاكى شان) يمزق خصومه فى فيلم الفيديو الذى يعرضه المقهى ، اقترح علىّ (أشرف) أن نقضى بضعة أيام فى قريته .. يومين أو ثلاثة ..

كنت قد اعتدت هذا كلما جئت إلى مصر ، وقد مرّ عامان منذ زيارتى الأخيرة .. إن قرية (أشرف) تحمل العديد من الذكريات الباسمة لصبانا ومراهقتنا وشبابنا .. وأنا لست من هؤلاء المحظوظين الذين لديهم قرية ما .. إننى ابن المدينة ، ولم أعرف سواها منذ ارتديت سروالاً طويلاً ، ولا داعى لأن أعترف بأن هذا لم يسرّنى لحظة واحدة .. كل شخص من حولى يملك قرية ما ، ويتكلم عن شىّ الذرة فى الحقل ساعة الغروب وشرب الشاى بالنعناع .. وفى المواسم تصله تلك الجعبة التى تحوى البطة واللبن الرائب والحمام المدسوس فى الأرز طيب الرائحة ..

فقط أنا لا أعرف لى أصلاً سوى هذه المدينة .. المدينة العجوز القبيحة المزدحمة ..

كان الإغراء قويًا ، ووافقت على الفور بشرط أن نسافر بعد يومين وبعدما أنتهى من استقبال الأقارب الذين سيهلّون غدًا ..

★ ★ ★

وبعد رحلة مريعة تحطم العظام فى سيارة لا تصلح لشىء سوى قتل ركابها ، وصلنا إلى قرية (أشرف) فى محافظة (...) ..

إنها رحلة تذكرنى برحلاتنا هنا إلى (أداماوا) وغيرها .. نفس الطرق الوعرة المغبرة ..

سأحاول هنا أن أنقل للجنة الموقرة شكل قرية (أشرف) ، والرسم المرفق مع هذه الأوراق هو خارطة أمينة لها .. طبعًا لست خبيرًا بما يفعله خبراء منظمة الصحة العالمية من دراسات (طبوغرافية) و (إثنولوجية) وبيئية .. إننى أحاول أن أجتهد لا أكثر ..

تعداد القرية أربعة آلاف نسمة ، وهو - بالنسبة لمصر - تعداد منخفض لا يجعلها عالية الكثافة السكانية .. من الجهة الاقتصادية هى قرية فقيرة جدًا ، لهذا لا تجد فيها ذلك التطور البينى الذى أصاب كل قرى مصر تقريبًا .. لا يوجد ازدحام من البيوت المصنوعة من الطوب ، ومعدات الزراعة عتيقة متخلفة .. إنها قرية كما كنا نعرف القرى قبل ذلك التحوّل الذى غيّر كل شىء فى مصر منذ السبعينات .. قرية زراعية .. بيوتها من طين .. ومتوسط الدخل متدن إلى حدّ كبير ..

تطل القرية على مصرف عريض ، وهو - كأى مصرف آخر - ليس آية فى النظافة والطهر .. لا بأس من جثة حمار ميت تطفو على الماء ببطء متجهة إلى حيث لا يعلم أحد ، تحيطها جزر نبات ورد النيل الكثيفة .. لا بأس من ضفادع أو فئران على الضفتين ..

ولكن المشهد - والحق يقال - لا يخلو من سحر خاص ، خاصة حين ترى الأشجار المنحنية فى خفة على سطح الماء كعذارى يغسلن شعورهن وقد صنع تشابك

الأغصان بقعة من الظلّ يتعذر معها أن تعرف إن كان الوقت نهارًا أم ليلاً .. مشهد يذكرنى بمجرى نهر (الأمازون) كما نراه فى السينما حيث تغدو رؤية السماء مطلبًا عسيرًا ..

كانت هذه البقعة هى جنة شباب القرية وشيوخها .. هناك كان الشيوخ يجلسون يدخنون المعسل فى جوزات صنعوها من مرطبانات قديمة ، ويثرثرون .. بينما الشباب يلهون ويحاولون صيد السمك بغصون الأشجار ، وينغمسون فى ألعاب أساسها اختبارات الرجولة الوليدة .. من يستطيع كسر حزمة القصب هذه بسيف اليد ؟ من يغلب الآخر فى المصارعة ؟ من يفرغ قلة الماء كلها فى جوفه على نفس واحد ؟
فإذا ظفر أحدهم ببعض السمك البلطى - بشكل ما يعيش هنا - أشعلوا النار فى جذع شجرة ميتة ، ووضعوا السمك الصغير المتواثب المرتجف على قطعة من الصفيح ، وراحوا يشوونه ، ثم يلقونه إلقاء فى وعاء يحوى الماء والخلّ وعصير الليمون ، ويتراهنون من جديد على من سيأكل كم سمكة بعظامها ..

لقد عشت كثيرًا فى هذه البقعة ، ولم أكن قط إنسانًا رومانسيًا لكنى ـ حين تغرب الشمس ـ كنت أشعر بالحاجة إلى أن أكلم (أشرف) عن حبّ فاشل من طرف واحد .. طبعًا لم يكن هناك شىء كهذا ، لكن المكان والجو يحتمان عليك أن تحب وأن تتعذب ..

أما لو جاء أحدهم بجهاز راديو صغير ، ربط حجارته بحبل غليظ ليطيل عمرها ؛ عندها كان صوت (فيروز) يضيف إلى عذوبة المكان نارًا حريفة لا يمكن وصفها ..

ما أجمل أن تحب ولا يشعر محبوبك بك ! إن هذا يعطى الحياة صبغة رومانسية رائعة ما كانت لتتحقق فى وجود حبّ متبادل مملّ !

لكنى ـ من جديد ـ أغرق فى الاستطراد ، وأحسب أن أعضاء اللجنة الموقرة لا وقت عندهم لسماع ذكريات مراهقتى ..

★ ★ ★

قال لى (أشرف) فى كياسة وهو يقتادنى إلى داخل الدار :

ـ « إن أبى ليس على ما يُرام .. لا تدع هذا يفسد يومك .. حاول ألا تبدى ملاحظة ما .. »

توقفت على الباب ، وقلت فى أريحية :

ـ « لا داعى إذن لهذا التطفل .. »

شدنى من ذراعى فى إصرار ، وقال :

ـ « لا مشكلة هنالك .. إن الكبر وتصاريف الشيخوخة لابد من أن تعملا عملهما ، والأمر ليس عاجلاً أو خطيرًا .. إنه يتدهور منذ عام .. »

ـ « والأطباء ؟ »

ـ « هو يرفض أن يذهب إلى المركز أو إلى القاهرة كى يفحصوه بعناية . لكن طبيب القرية يقول إنها الشيخوخة .. أحيانًا يتحدث عن تليف كبدى .. أنت تعرف أن أطباء الريف يفسرون كل شىء فى ضوء التليف الكبدى .

قلت موافقًا :

ـ « نعم .. كما كان أطباء العصور الوسطى ينسبون كل شىء إلى الهواء الفاسد .. بل إن مرض (الملاريا) معناه (الهواء الفاسد) حتى اليوم ! »

وحمدت اللّه على أنه لم يطلب أن أفحص أباه .. لا أهوى تجربة مهاراتى الطبية على الأقارب والمعارف .. ثم إننى بعيد عن (سافارى) ، وفى (سافارى) كنت أعرف أننى قليل الخبرة ، لكنى كنت أعتمد على وجود جيش من علماء الطب خلفى .. جيش يجيب عن كل سؤال ويصحح كل خطأ .. هذا هو عيب العمل فى مركز طبى عملاق .. إنك لا تستطيع أن تمارس المهنة بعيدًا عنه ..

ما إن صار فى (صحن الدار) ـ كما يقولون ـ حتى تغيرت لهجته تمامًا ، وصار ينادى أباه بـ (آبا) وأمه بـ (أمّه) .. وصار يستبدل بالقاف جيمًا ، وقد يعطّش الجيم أحيانًا على غير عادة القاهريين .. كأنه قد خلع حذاءه القديم الضيق وارتدى خفه القديم المريح ..

همست فى خبث :

ـ « سمعتك منذ عشر دقائق تتحدث عن أبيك قائلاً (بابا) .. »

حرك كفه على عنقه علامة الذبح وقال :

ـ « لو سمعنى أحد فى القرية أستعمل لفظ (بابا) لكان هذا آخر يوم فى عمرى ! »

وسرعان ما بدأت طقوس الترحيب بى ، وأدخلت إلى حيث كان أبوه جالسًا على (مصطبة) يرقب الأم العجوز تطهو الطعام .. كان فلاحًا مجعّدًا كأنه جنيه نسيته فى جيب سروالك أثناء غسله .. ومن صدر جلبابه كانت غابة من الشعر الأبيض المشعث كضبع عجوز ..

الحق أنه تقدّم فى العمر كثيرًا ، وكان وجهه قد اكتسب مسحة من الكآبة والجمود الغريبين ، وفى العينين نظرة غبية لم أعهدها فيهما من قبل ..

بدأنا نتكلم ثم لاحظت أنه لا يهتم بحرف مما أقول .. لقد سقط رأسه على صدره ونام ..



الحقّ أنه تقدَّم فى العمر كثيراً ، وكان وجهه قد اكتسب مسحة من الكآبة والجمود الغريبين ..

اعتصر قلبى الأسى على ما تفعله السنون بنا .. وآثرت الصمت بينما الأم النشطة تعمل بجدّ ، وتسألنى عن أحوالى فى بلاد الغربة ..

★ ★ ★

وجاء موعد الطعام ، فنزعت حذائى وافترشت الحصيرة جوار الأسرة الصغيرة .. كان المناخ كئيبًا ثقيلاً على النفس حتى دعوت اللّه أن تنتهى هذه الجلسة سريعًا ..

لاحظت أن الشيخ لا يأكل ، وأنه يجاهد كى يبقى عينيه مفتوحتين ورأسه قائمًا على عنقه ، لكنه كان يفشل بلا هوادة ..

ـ « كُل يا أبا (أشرف) .. كل .. »

تقولها الأم العجوز الباسلة ، وتدسّ الطعام دسًّا فى فمه المفتوح ، فيتنبه ويلوك ما بفمه ، ثم يعود للنعاس ..

الحق أن حالة الرجل أسوأ مما ظننت .. ولولا أننى أعرف حدودى لقلت إنه يعيش آخر أيامه إن لم تكن آخر ساعاته ..

فجأة تنبه الرجل ، وقال شيئًا عن الضرورة ..

ثم نهض مترنحًا ليقف على بعد متر منّى ..

ودون إنذار أو اعتذار لبّى نداء الطبيعة أمامنا !

★ ★ ★

ـ ٢ ـ

عاد الرجل ليواصل طعامه على الطبلية جوارنا ، ونظر لى (أشرف) نظرة مناشدة متوسلة أن أسامحه وأسامح أباه .. طبعًا لم أستطع أن أغضب على الرجل ، لكن بركة البول على بعد متر منى جعلتنى أفقد كل شهية ، ومن يلومنى على هذا ؟

داعبت الأرز فى الصينية بالملعقة قليلاً مترددًا بين حرج واشمئزاز ، ثم وضعت الملعقة ونهضت حامدًا الله ، شاكرًا الزوجة على كرمها .. لم تعلق ولم يعلق (أشرف) لأن الموقف لا يحتاج لإضافات كلامية ..

غسلت يدى من (الزير) الذى يضعونه جوار الباب ، ثم جلست على المصطبة أتأمل البط الذى يمرح باحثًا عن رزقه .. تلك كائنات سعيدة رائقة البال .. صحيح أنها ستذبح يومًا .. لكنها لا تعرف هذا .. ثم من يضمن لى أننى لن أذبح يومًا ما أنا الآخر ؟

وأخيرًا جاء (أشرف) حاملاً كوبين من الشاى الساخن ، ناولنى واحدًا ثم قبض كفه كلها على الكوب الآخر كعادة الفلاحين ، وجلس جوارى وقال بعد ما رشف رشفة قوية مشبعة :

ـ « أكرر اعتذارى .. »

سألته وأنا أنفخ فى الشاى لأبرده قليلاً :

ـ « ليس على المريض حرج .. ولكن هل فعلها من قبل ؟ »

ـ « كثيرًا ! لقد فقد ـ وليغفر الله لى ـ الحسّ الاجتماعى بما هو لائق وما هو غير لائق .. لم يعد يستحم أو يتوضأ ، وينام فى أى مكان وكل مكان وكل وقت .. »

هززت رأسى فى فهم :

ـ « إنه أرذل العمر .. »

حك رأسه محتجًا ، وقال :

ـ « ليس عجوزًا إلى هذا الحدّ .. كم تظن عمره ؟ »

ـ « لنقل ستين عامًا مثلاً ؟ »

ـ « بل هو فى الثامنة والأربعين ! إنه من جيل كان يعتبر الفتى غير طبيعى لو لم يتزوج قبل سن العشرين ! »

بدا لى هذا غريبًا .. الرجل يبدو مسنًّا أكثر من هذا بكثير ، ثم هذا التدهور غير المفهوم .. ليست هذه هى السن التى يصاب المرء فيها بالخرف ، ويتبول جوار ضيوفه الجالسين للغداء .. كلا .. الأمر أعقد من هذا ..

قلت فى حيرة :

ـ « هذا عجيب .. إن أباك مصاب بما هو أكثر من تصلب شرايين الشيخوخة .. هناك مرض له اسم وله علاج .. »

ـ « جميل .. وما هو فى رأيك ؟ »

فكرت قليلاً ، وقلت :

ـ « لا أدرى .. إن مختص السموم سيتكلم عن تسمم الرصاص المزمن .. ومختص أمراض الكبد سيتكلم عن خلل المخ الكبدى .. ومختص الأمراض العصبية

سيتكلم عن حالة فريدة من مرض (الزايمر) .. ومختص الغدد الصماء سيتكلم عن داء (الناركولبسى) أو نقص هرمون الغدة الدرقية .. »

ـ « وماذا يقول مختص طب المناطق الحارة مثلك ؟ »

ابتسمت فى مرارة وقلت :

ـ « إن مصر ليست داخل هذا النطاق والحمد لله .. أردت أن أقول لك إن حالة أبيك هى حجر يلقى فى مياه هادئة ، فلابد أن يحدث عشرات الدوائر .. لابد من مستشفى ومن تحاليل ومن أشعة على المخ .. »

ـ « إنه يرفض هذا كله .. »

فى حزم قلت وأنا أضع كوب الشاى الفارغ جوارى :

ـ « كما رأينا جميعًا ؛ لم يعد هذا البائس سيد قراره ، وليس مسئولاً عن أقواله وأفعاله .. يجب أن يدخل المستشفى ، وليكن هذا اليوم بالذات لو أردت رأيى .. »

فكّر لبضع دقائق ، ثم قال :

« ليكن .. والآن دعنا نحسن استقبالك فى زيارتك هذه .. دعنا نأخذك إلى حيث اعتدت الذهاب .. فلنمض وقتًا طيبًا حتى المساء ، وعندها سنجد حلاً .. »

نهضت وتثاءبت ، وقلت :

ـ « ليكن .. هيا بنا .. »

★ ★ ★

ـ « من الغريب يا (علاء) أن أبى لا ينام الليل تقريبًا .. لكنه ينام أكثر ساعات النهار .. »

ـ « إنه (انقلاب فى إيقاع النوم) .. وهو يميّز عشرات الأمراض .. »

ـ « لا أدرى لماذا لم أدخل كلية الطب كى أفهم هذه المصطلحات .. »

ـ « لأنك سعيد الحظ .. ولأنك وغد ذكى .. هذا هو السبب .. »

★ ★ ★

اصطدنا بضع سمكات تعسة الحظ ، قمنا بشيّها بالطريقة المعتادة ، وكنت بالطبع جائعًا لأننى لم أصب طعامًا وقت الغداء ، فالتهمت أكثرها ..

بعد هذا بدأت عملية إعداد الشاى ، وهى عملية بالفعل ليس أعقد من طقوسها إلا طقوس شرب الشاى .. إن قارئ العربية يذكر ما قاله (طه حسين) فى الجزء الثانى من (الأيام) .. هذا يلخص الموقف ..

لاحظت أن رجلين يجلسان فى ظلّ شجرة وارفة على مسافة منا .. كانا غافيين كمن هدّه التعب .. والغريب أنهما لم يتحركا طيلة الساعتين اللتين أمضيناهما نصطاد السمك ونشويه ونعدّ الشاى ..

جاء (حمزة) ، وهو صبى حافى القدمين يرتدى جلبابًا ممزقًا ، وقد رسم على وجهه معالم خطورة لا معنى لها .. جاءنا وهو يلفّ فى جلبابه بضعة كيزان من الذرة جلبها من حقل قريب ..

ناوله (أشرف) بعض قطع العملة ، وتناول منه كيزان الذرة وبدأ يجردها من قلفها توطئة للشىّ ، ثم سأله مشيرًا إلى الرجلين :

ـ « من هذان ؟ »

ـ « إنه أبى و (عبد الحليم عودة) .. »

ـ « هل هما حيّان ؟ .. هل أنت واثق من هذا ؟ »

قال الصبى بصوته الرفيع الذى أوشك أن يصير خشنًا ، من فرط محاولته لافتعال الخشونة فيه :

ـ « بخير حال يا أستاذ (أشرف) .. أنها القيلولة .. أبى يعشق النوم هذه الأيام .. »

ثم انطلق يجرى مطاردًا كلبًا هزيلاً مذعورًا ويقذفه بالحجارة ، حتى توارى عن عيوننا .. عيوننا التى تبادلت نظرات حائرة :

ـ « على الأقل ليس أبوك النائم الوحيد هنا .. »

هزّ (أشرف) رأسه وألقى بثلاثة كيزان فى النار ، وراح يحرك الهواء فوقها باستعمال قطعة من الورق المقوى .. وقال :

ـ « أعتقد أن هناك آخرين .. لقد حلّت لعنة الخمول بهذه القرية ، لكن ما من أحد مثل أبى فى سوء الحال .. »

★ ★ ★

وبالطبع لم نستمتع بطقوس (المرح) هذه المرّة ، لأننا شعرنا إلى حد ما بأننا نمارس نوعًا من العادات على سبيل الروتين .. كان الجو ملبدًا بالغيوم داخلنا ، وراق لى أن الليل قد جاء أخيرًا لننفذ ما اتفقنا عليه من نقل الرجل إلى المستشفى ..

حملناه حملاً إلى سيارة (أشرف) العتيقة ، فلم يعترض أو يقل شيئًا .. ظل يرمق العالم بعينين غبيتين خاليتين من التعبير ، وبعد دقائق نام فى المقعد الخلفى ..

قلت لـ (أشرف) وأنا أرمق الرجل :

ـ « طبعًا لاداعى لمستشفى المركز .. أفكر فى مستشفى متقدم بالقاهرة يملك إمكانيات أكبر .. ما رأيك فى مستشفى (...) ؟ »

ـ « إنهم يطلبون أسعارًا فلكية .. عدد الأصفار فى فاتورتهم يصلح لرصف هذا الطريق الوعر .. »

ـ « سأتكفل أنا بكل شىء .. كلا .. ليس قرضًا ..

يمكنك أن تعيده بعد عام أو بعد عشرين عامًا .. لا يهم .. »

غلبه التأثر فلم يتكلم .. لكن العاطفة المسيطرة عليه أساسًا كانت الهلع وعدم التصديق .. لقد كان يعتبر كل هذه أعراض شيخوخة عادية ، لابد أن يتحملها حتى يأتى العلاج النهائى الأبدى الذى يزيل كل الآلام .. فإذا بى أقلب عالمه رأسًا على عقب ، وأعلن أنها حالة طوارئ خطرة ..

إنه لم يحسب الأمور بهذا السوء قط ، ولكنى جعلت من المستحيل عليه الآن أن يعود إلى القاهرة وحده بضمير مستريح ..

★ ★ ★

وفى المستشفى الاستثمارى الراقى ، أخذوا منا مبلغ تأمين لا بأس به .. وطلبت منهم أن يستدعوا أستاذًا فى الأمراض العصبية .. هو سيطلب كل الأبحاث الممكنة التى أعرفها والتى لا أعرفها ..

جاءنا الرجل أخيرًا ، وفحص الفلاح الشيخ بدقة ، ثم طلب أشعة مقطعية على المخ ، وفحصًا لسائل النخاع الشوكى .. طلب كذلك قائمة من الفحوص المعملية تبدأ بالسكر ولا تنتهى به ..

كان متعجلاً نافد الصبر علامة على النجاح ، وراحت أضواء هاتفه الخلوى المحمول تتوهج فى جشع طيلة الوقت ، لكننى لحقت به وهو يتجه إلى باب المصعد ، وسألته :

- « هل تعتقد أنها حالة من داء (الزايمر) ؟ »
- « سنعرف كل شىء .. »
- « هل هو خلل بالغدة الدرقية أم .. ؟ »
- « سنعرف كل شىء .. »
- « هل تظنه قابلاً للشفاء ؟ »
- « سنعرف كل شىء .. »

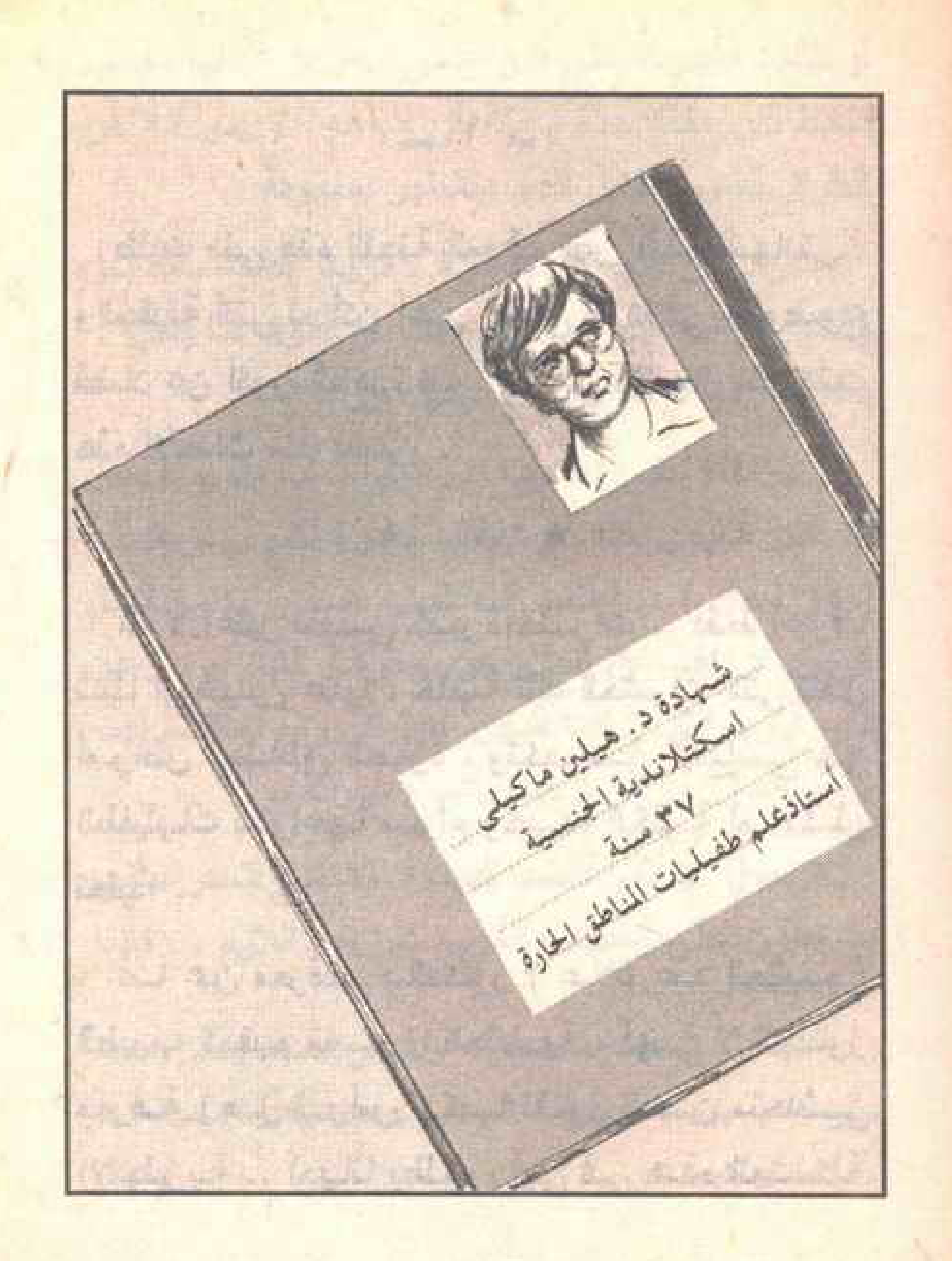
وانغلق باب المصعد فى وجهى ، فعدت كاسف البال إلى الاستراحة ورحت أرشف قدح القهوة الذى طلبته .. يبدو أن هذا الرجل عبقرى حقًا ..

بعد نصف ساعة - إنهم سريعون هنا - نقلوا المريض إلى ما يشبه غرفة جراحة صغيرة ، حيث أخذوا من بين فقرات ظهره قطرات من السائل النخاعى الشوكى ، وحملوه إلى جهاز الأشعة المقطعية ..

كان (أشرف) متوترًا ، وقد استكمل طقوس الهلع بأن طالت ذقنه - لا أدرى كيف بهذه السرعة - وغادر قميصه سرواله ، وفى عينيه لاحت نظرة مجنونة .. سألنى كعادته للمرة الألف :

- « ماذا يقولون ؟ .. تبًا لهذه الرطانة اللاتينية .. ! »
- « يقولون إنهم لا يعرفون ما عنده ! »
- « يا سلام ! وما جدوى كل هذه المصطلحات ؟ »
- « أنها تقاليد المهنة .. »

ودخلت إلى قسم الأشعة لأسأل مشغل الجهاز عن كُنه ما وجدوه .. لا لن أنتظر التقرير حتى يكتبه المختص .. قال لى إن هناك تورمًا عامًا فى المخ يشير



إلى التهاب مخى عامّ ..

كان هذا فى العاشرة مساءً ..

وعند منتصف الليل توفى أبو (أشرف) بعدما غاب فى غيبوبة عميقة لمدة ساعتين ..

علاء عبد العظيم

١٩٩٨

★ ★ ★

- ١ -

طلبت منى هذه اللجنة الموقرة أن أقدّم شهادتى ، والحقيقة أننى لم أكن أعتبر نفسى طرفًا فى الموضوع فضلاً عن أكون شاهدة فيه .. وعلى كل حال لقد كانت هذه الأحداث منذ عامين ..

★ ★ ★

أنا لا أعتبر نفسى خبيرة حشرات .. فقط أعرف شيئًا أو شيئين عنها ، خاصة تلك الحشرات التى تنقل أمراض المناطق الحارة ، وتخصصى الأساسى هو الطفيليات بأنواعها سواء وحيدة الخلية أم الأكثر تعقيدًا ..

أما عن معرفتى بالدكتور (علاء عبد العظيم) الطبيب المقيم مصرى الجنسية ، فهى لا تتجاوز معرفة (هزّ الرأس) كما نقول نحن متحدثى الإنجليزية .. أحيانًا يطلب رأيى فى هذه المشكلة

أو تلك ، فأجيبه على قدر علمى .. وهو شاب مهذب نشيط لكن هناك حدّة معينة فى طباعه ، ويبدو أنه من الطراز قصير الفتيل الذى يتشاجر بسهولة ..

أعرف أن اللجنة الموقرة لا تريد انطباعات بل وقائع ، وأنا أقع هنا فى خطأ أن أقول ما يُقال .. بصراحة لم أر منه إلا كل تهذيب ورقة ..

(إبراهام ليفى) طبيب إسرائيلى شاب يقوم بفحص أمراض العيون هنا ، وعلاقتنا - مرة أخرى - علاقة (هزّ رأس) .. أعتقد أنه شاب عادى لكنه ككل اليهود لا يكفّ عن الكلام عن محرقة النازى ، وعن ذنب أوربا التى تركت اليهود يحترقون ثم لم تقدم لهم سوى المال ، وهو أرخص شىء فى العالم (*) ..

لا أحمل أى شىء ضد اليهود ، لكنى أشعر بأنهم يضغطون على أعصاب الغرب أكثر من اللازم ، وكأننا

(*) لاحظ أن المتكلمة أسكتلندية ، وبالتالى تتحدث بحذر وحياد حتى لا تتهم بمعاداة السامية . التهمة اليهودية الجاهزة الكفيلة ربما بطردها من الوحدة ..

نحن من عذبنا آباءهم . وعلى كل حال من قال إن (إسرائيل) هى الممثل الرسمى ليهود العالم ؟!

كانت هذه هى نقطة الخلاف الوحيدة بينى وبين (ليفى) ، وفيما عدا هذا كان مهذبًا معى .. ولا أملك ما أقوله ضده ..

★ ★ ★

كنت قد عدت من (إدنبرة) منذ أيام ، وقد قررت إجراء بعض تجارب على انتقال الصفات الوراثية لدى ذبابة (جلوسينا بالباليس) التى تنقل طفيل (التريبانوسوما) هنا ..

إن انتقال الطفيل عبر أحشاء الذبابة لموضوع فاتن خلاب ، لكنه بالتأكيد لا يناسب جميع الأذواق ، وعلى كل حال كان هذا المرض يذكرنى بديفيد بروس العظيم ، وكنت أحبّ أن أشعر بأننى فى عالمه (*) ..

ليس مرض النوم واسع الانتشار فى (الكاميرون) ..

(*) سنتحدث بالتفصيل عن (ديفيد بروس) بعد قليل ..

هناك حالات عديدة لكنه ليس ظاهرة قومية كالتى نراها فى (الكونغو) أو جنوب الصحراء أو شمال (زامبيا) ..

وكنت قد احتفظت بعدة أجيال من ذبابة (الجلوسينا) فى أقفاص خاصة ذات سلك ضيق لا يسمح بفرارها ، وهى أجيال تربت على مرضى النوم ، ثم استطاع الجيل الأول أن ينقل العدوى إلى الجيل الثانى فالثالث ... ظاهرة فريدة قلما نراها إلا فى القراض .. الأم تلد طفلاً قادرًا على نقل العدوى بدوره .. وقد وصف بعض العلماء هذه الظاهرة فى ذباب (الجلوسينا) لكن ـ خيل إلىّ ـ لم يقم أحد بتوثيقها بشكل محكم .. وخيل إلىّ أننى المحظوظة التى ستحقق هذا الكشف الفريد .. لقد قلبوا كل الأحجار هنا ، ولكنى حسبت أننى وجدت حجرًا لم يقلبوه أو لم يقلبوه بعناية ..

فى الآن ذاته كنت أجرّب دور الطفرات فى خلق جيل مقاوم للمبيدات من ذبابة (الجلوسينا) .. إنه قانون الانتخاب الطبيعى الداروينى الشهير : بعض

الذباب سيقاوم المبيد (أ) ، وهذا الذباب سيتكاثر ليكون جيلاً كاملاً يقاوم المبيد (أ) .. بعد هذا أنتقى من هذا الجيل بعض الذباب الذى يقاوم المبيد (ب) ، وأدعه يتكاثر كى يأتى جيل يقاوم المبيدين (أ) و (ب) ..

ما جدوى هذا ؟ لم تكن هناك خطورة ما ؛ لأن تجاربى محكمة لا تسمح بأى تسرّب .. وكان ما أبحث عنه هو أحد الإنزيمات الذى يستطيع الذباب أن يكوّنه لنفسه ، ويقاوم به تأثير المبيد .. خطر لى أن بوسعى تقديم سلسلة من الأوراق العلمية عن ذبابة (الجلوسينا) وقدراتها على مقاومة المبيدات ونقل العدوى عبر الأجيال ..

كان هذا لعبًا بالنار ، لكنها نار مُحاصرة مقننة موضوعة فى وعاء معدنى ، وفى يدى أنبوب الإطفاء جاهزًا للعمل فى أية لحظة ..

★ ★ ★

فى أحد أيام شهر يونيو عام ١٩٩٦ .. نعم .. هو كذلك لأننى ـ كما قلت ـ كنت عائدة على الفور من الوطن ..

فى أحد أيام يونيو جاءنى (إبراهام ليفى) فى معملى .. بالطبع لا أذكر تفاصيل الموضوع لكنه كان يتعلق ببعض الديدان الصغيرة التى استخرجها من عين عجوز زنجية .. كان يريد أن أخبره برأيى ومدى احتياج العجوز إلى جرعات من (الهترازان) .. إن لحظة زحف دودة (لوا لوا) تحت غشاء الملتحمة فى عيون المواطنين هنا لحظة رهيبة حقًا ، ولا ينساها بسهولة من يراها .. لكن طبيب العيون يمكنه أن يلتقطها بالجفت والمبضع ، وبهذا يُسدى للمريض خدمة عظيمة ..

قلت له رأيى ، ثم دعوته إلى بعض القهوة ، وهى قهوة أعدّها بنفسى ، وتختلف عن قهوة (سافارى) الشبيهة بمياه الأوحال ..

رحّب بالأمر وراح يجوب المعمل يتأمل عيناتى المحفوظة فى (الفورمالدهايد) ، أو المثبتة إلى قطع من الإسفنج ..

ثم توقف أمام أقفاص الذباب إياها ، وتأملها فى صبر وهى لا تكف عن الأزيز ..

قال فى مرح :

ـ « هذا الذباب .. لابد أنه مختلف .. لقد نسيت كل شىء عن علم الطفيليات .. »

ـ « هذه هى الذبابة المعروفة علميًا باسم (جلوسينا بالباليس) .. وبعبارة أقرب إلى لغة كل يوم هى ذبابة (تسى تسى) .. »

ابتسم فى شغف ، وقرّب رأسه من القفص :

ـ « آهاه .. مرض النوم ! كم أنا بحاجة إلى لدغة منها ! »

ـ « لا أنصحك بهذا .. إنه نوم لم يصحُ منه أحد حتى اليوم ! »

صفّر بشفتيه ، ورشف المزيد من القهوة :

ـ « وووه ! لا تبدو لى خطيرة إلى هذا الحدّ .. »

قلت له : أننى لا أعرف كيف تبدو الذبابة خطيرة .. لا يجب أن تكون لها أنياب تقطر دمًا ولونها أحمر جهنميًا .. حتى فراشة (صمت الحملان) الشهيرة التى تحمل صورة جمجمة على ظهرها ليست بهذا الخطر ..

سألنى وهو يجلس :

ـ «هل لك أن تكلمينى عن هذه الذبابة لو لم تكونى مشغولة ؟ »

كان فضولاً علميًا أحترمه ، لهذا بدأت أثرثر ..

★ ★ ★

إن الحديث عن مرض النوم يعنى الحديث عن ذبابة (تسى تسى) .. عن (الناجانا) .. عن (ديفيد بروس) .. عن طفيل (التريبانوسوما) .. ويستحيل الحديث باختصار أو بحياد لأنه موضوع ممضّ طويل ..

إن مرض النوم واحد من الكوابيس التى اختارت القارة السوداء البريئة لتعيش فيها .. هذا قدر الأفارقة .. مساحات شاسعة من بلادهم بسط عليها

عمى الأنهار سيطرته ، ومساحات شاسعة غرس فيها مرض النوم عصاه .. البلهارسيا تعلن هيمنتها على وادى النيل .. وبقاع هائلة تقتلها الملاريا والـ (كالاآزار) ..

لكنى سأتحدث هنا عن مرض النوم بالذات (*) ..

فى البداية كان الأفارقة يجهلون سببه ، وكذا كانت الإرساليات والحملات الاستعمارية .. إن المريض تعس الحظ يدنو من الأنهار فى (الكونغو) أو (جامبيا) أو (أوغندا) .. وبعد بضعة أيام يعانى الصداع والحمى وتتورم بعض الغدد اللمفاوية فى عنقه ، ثم يبدأ مسيرة النهاية .. النهاية البطيئة جدًا التى قد تقتضى عامين حتى تكتمل الصورة الكابوسية ..

إن وجه المريض يتخذ صورة غبية حزينة غير معبرة .. سلوكه الاجتماعى يتدهور باستمرار ، ويصير عصبيًا سخيفًا أحمق ، ولو لم يضع الأطباء مرض النوم فى حسبانهم ـ فى المناطق الموبوءة ـ

(*) سنتحدث بالتفصيل عن (ديفيد بروس) بعد قليل ..

فمن الوارد أن ينتهى المريض فى مستشفى الأمراض العقلية ..

لكن المعاناة لم تنته بعد .. إن كل هذا يعد ضربًا من المزاح بالنسبة إلى مرحلة تدهور الجهاز العصبى .. تبدأ الرجفة .. يبدأ النوم فى كل لحظة وكل حين .. إن النوم فى أثناء الأكل يعتبر من علامات التشخيص الجيدة ، وكثيرون من هؤلاء يموتون جوعًا ما لم يعتن الأهل بإطعامهم قسرًا ..

الآن تبدأ مرحلة الغيبوبة النهائية .. النوم النهائى الأبدى الذى يتصل بالموت فى موضع ما ..

ولقد استطاع العلماء أن يميزوا ضربين من داء النوم : النوع السائد فى (جامبيا) وهو ما وصفناه بالضبط .. والنوع السائد فى (روديسيا) وهو أقل اعتيادًا على الجهاز العصبى للإنسان .. لهذا يهاجم القلب بشراسة أكثر وقسوة أكثر .. إن المريض به أكثر حظًا لأنه يموت بهبوط القلب قبل أن يمرّ بذلك التدهور القاسى فى وعيه وذكائه ..

كان هذا الداء الوبيل يفرض سيطرته على إفريقيا .. جاعلاً مساحات هائلة من أرضها الخصبة أرض (لا إنسان) كما يقولون ..

كان رجال القبائل يموتون ، والمبشرون يموتون ، وجنرالات القوات الاستعمارية يموتون .. وما كان أحد يعرف كنه ما يحدث ..

حتى جاء (ديفيد بروس) ..

★ ★ ★

يا له من رجل (ديفيد بروس) !

(بروس) جراح الجيش البريطانى العصبى المتمرد ، الذى يرفض الالتزام بالنظام ، ويستجلب غضب رؤسائه ..

(بروس) الذى لم يحاول أن يخلق مسافة بينه وبين رجال القبائل ، مما أثار حنق ذوى العقلية الاستعمارية ..

كان (بروس) لا يبالى بالحرب .. كل ما يعنيه هو

رغبته فى مطاردة الميكروبات عبر أحراش إفريقيا ، وفى البداية أرسله الجيش مع زوجته عام ١٨٩٤ إلى (مالطة) ؛ كى يدرس تلك الحمى العجيبة التى تهشم عظام الجنود هناك ، وتبلل أسرَّتهم بالعرق ليلاً .. لم يستغرق وقتًا طويلاً حتى يجد الباكتريا المسببة لحمى (مالطة) ، وكانت نصيحته لقادة الجيش هى : لا تعيشوا مع الماعز والأبقار فى مكان واحد .. اغلوا اللبن جيدًا قبل شربه مع تهشيم قشرته فى أثناء الغليان ، وفيما بعد خلدوا اسمه بأن أطلقوا على الباكتريا التى اكتشفها اسم (بروسللا) ..

كانت هذه محطة (ترانزيت) توقف عندها فى طريقه إلى (الناتال) فى إفريقيا .. ثم انطلق إلى أرض (الزولو) ليستقر مع زوجته فى (أبومو) ..

كان هناك مرض عجيب اسمه (ناجانا) ـ معناها (المكتئب) بلغة الزولو ـ يصيب الخيول ، وكان الجواد التعس يصاب باكتئاب شديد ثم يكفّ بصره ويموت .. لقد جعلت (الناجانا) أكثر أراضى (الزولو) مناطق محرمة على الجنود ..

أجرى (بروس) تجاربه على الخيول ، واستنزف كثيرًا من دمها فى أثناء المرض ليفحصه تحت المجهر مع زوجته الباسلة ..

أخيرًا استطاع أن يرى الطفيل اللعين يسبح بين كرات الدم الحمراء .. يسبح ـ كشيطان ـ بوساطة غشاء رقيق ، وحركته تختلف عن حركة الباكتريا الحمقاء الخرقاء .. كانت حركة وغد يعرف جيدًا ما يفعله ، وأين يوجه ضربته التالية .. يلتف حول كرة الدم فى رشاقة ثم يتراجع ويضربها ضربة موفقة بارعة .. ويكرر ذلك مرارًا .. ثم يواصل رحلته ..

ـ « لقد وجدت (التريبانوسوما) ! هذا هو ما يسبب مرض (الناجانا) !! »

وفى الحيوانات المحتضرة كان يشعر أن دمها ليس كرات حمراء تحوى (تريبانوسوما) ، بل العكس ! ولكم اقشعر جلده من مشهد كهذا ..

وبدأ (بروس) البحث عن الطريقة التى ينتقل بها الطفيل من حيوان لآخر .. كان الوطنيون يتحدثون عن

ذبابة اسمها (تسى تسى) ، وقد قرر أن يصدقهم ، وقام بتشريح الذبابة ليجد الطفيل بداخلها ..

ـ « إن ذبابة (تسى تسى) هى ما ينقل الـ (ناجانا) .. تخلصوا من الذبابة لتنجوا من الوباء .. »

وقد كان ..

وهكذا حين بدأت (أوغندا) تعانى من ازدياد مروّع فى حالات مرض النوم ، لم يجد رجال الجيش إلا الطبيب المشاكس كى يدعوه لمعرفة سبب هذا المرض .. وانتقل (بروس) مع زوجته إلى (أوغندا) .. وكان معه طبيب شاب يدعى (نابارو) ومهندس يدعى (جبسون) يجيد كل شىء من إنشاء الجسور إلى إصلاح أجهزة المجهر ..

فى دم المرضى وجد (بروس) الطفيل ذاته .. (تيربانوسوما) .. لقد كان سبب (الناجانا) فى (الناتال) .. وهو هنا يسبب داء النوم ..

وجده فى دم المرضى ، وفى السائل النخاعى الشوكى الذى استخلصه من ظهورهم ..

- « إذن لابد من القضاء على ذبابة (تسى تسى) فى (أوغندا) .. »

قال له الحاكم الأوغندى الأسطورى (أبوللو كاجوا) :

- « كل هذا جميل .. المشكلة أنه لا توجد (تسى تسى) فى (أوغندا) ! »

إذن هناك خطأ ما .. لا بد من (تسى تسى) .. ولكن أين ؟

كانت هناك ذبابة تعيش فى (أوغندا) جوار الأنهار حيث ظلّ الأشجار ، وحيث ترتفع الرطوبة ، وكان الوطنيون يدعونها (كيفو) ...

الواقع أن (كيفو) فى (أوغندا) هى نفسها (تسى تسى) فى (الناتال) .. ولقد بدأ (بروس) مشروعًا ضخمًا بالاتفاق مع الحاكم (أبوللو كاجوا) .. علق خارطة (أوغندا) على الحائط ، وراح يتلقى المراسلات من كل جهات البلاد .. مراسلات تتعلق بحالات مرض النوم الجديدة ، ومراسلات تتعلق بالعثور على ذبابة (كيفو) هذه ..

كلما وصله خبر عن حالة جديدة كان يغرس دبوسًا أسود على الخارطة ، وكلما وجد الأهالى ذبابة (كيفو) غرس دبوسًا أحمر .. هكذا صارت الخارطة تحدد بوضوح أن الدبابيس السوداء والحمراء لها توزيع واحد ..

وفى الوقت ذاته كان يتلقى بالبريد عينات من الذباب من كل مكان فى (أوغندا) ، فكان يشرحها ويفحصها بعناية ..

الحق أنه كان عملاً جبارًا لا تقدر عليه سوى منظمة دولية فى عالم اليوم ، والأهم أن المواطنين السود تعاونوا معه بنظام ودقة وتحضر يستحيل أن نجدها لدى مجتمع من البيض ، ولعل جزءًا كبيرًا من هذا يعود إلى إدراكهم لخطورة المرض وشعبيته وحزم الحاكم (أبوللو) ..

فى النهاية ، وبعد جهد مضن وقف (بروس) أمام القواد البريطانيين وحكام البلاد السود ، وقال :

- « إن ذبابة (تسى تسى) أو (كيفو) هى المسئولة عن نقل الوباء فى هذه البلاد .. يجب إبعاد الأهالى

عن مناطق الأنهار .. يجب تحريم الصيد .. يجب قطع الأشجار على مسافة عشرين مترًا على جانبى الأنهار ، كى تفقد الذبابة الظلّ الذى تحتاج إليه لتتكاثر ، وبعد عام عندما يكون المصابون بالمرض . قد ماتوا ؛ يمكن العودة للأنهار ثانية .. سيكون مرض النوم قد انتهى ولن تنقل الذبابة شيئًا .. »

وبدأ تنفيذ الخطة بحماس شديد ، وبالفعل - بعد عامين - بدا أن المرض قد تلقى ضربات موجعة حاسمة .. وبدأ ينحسر ..

فجأة بدأت التقارير تتوالى عن ظهور الوباء من جديد ..

لم يفهم (بروس) شيئًا .. أنها الطبيعة الخبيثة المراوغة تلعب ألعابها غير المفهومة من جديد .. حمل عتادة وعاد إلى (أوغندا) ثانية ..

توجد صورة فوتوغرافية نادرة تظهره جالسًا على الأرض ، وسط دائرة من الوطنيين الأوغنديين عراة الجذع .. ثمة دائرة تحيط بدائرة .. وعلى كل وطنى يجد الذبابة على ظهر الجالس أمامه أن يقتلها ، ثم تنتقل الذبابة إلى (بروس) الجالس فى المركز ليجز

عنقها ويضعها على شريحة .. لقد لدغه الذباب كثيرًا لكنه لم يصب بشىء ، وهو شىء لم يفهمه قط ..

وفى النهاية عرف (بروس) قصة الوباء كاملة .. المرض يبدأ بالإنسان المريض الذى تلدغه الذبابة .. الذبابة تطير وتلدغ إنسانًا سليمًا ليصاب بالمرض . لكن الذبابة كذلك قد تلدغ وعلاً .. من ثم يصاب الوعل بالمرض ويلعب دور (المستودع الاحتياطى) للعدوى ..

وهكذا قد يتوارى الوباء عدة أعوام ، ويموت المرضى ، ولا تظهر حالات جديدة .. ثم فجأة .. هوب ! ينقل الذباب العدوى من المستودع - الوعل - إلى البشر من جديد ..

وهكذا تظل سياسة (بروس) فى مكافحة الداء فعالة ، لكنها تحتاج - كما نرى - إلى إبادة الذباب ، وربما الوعول كذلك ..

حقًا لقد كان (ديفيد بروس) رجلاً من طراز نادر ..

★ ★ ★

- ٢ -

انتهيت من محاضرتى الطويلة عن مرض النوم ، وكان (ليفى) يتابعها بعينين متسعتين نهمتين إلى المزيد ، فلم تصبه عدوى النوم لحسن الحظ ..

قال وهو يضع قدحه الفارغ .

- « الحق أنه مرض مريع .. بالطبع أنا أعرف عنه بعض الأشياء ، لكنى لم أع حجم المشكلة حتى الآن .. »

ثم سألنى وهو يتأمل القفص القريب منه :

- « قلت إن هناك نوعين من ذبابة (جلوسينا) ، فهل يعيش النوعان جوار الأنهار فى ظلّ الأشجار ؟ »

- « كلا .. إن النوع الروديسى ونسميه (جلوسينا مورسيتانز) يعيش فى السافانا .. ويعيش فى أماكن متفرقة مما يجعله لا يسبب أوبئة ، لكن مقاومته أكثر عسرًا .. والأسوأ هو أنه يهوى ركوب السيارات !

نعم .. يلتصق بقاعها وهكذا يسافر لمسافات لا يمكن تصورها .. »

- « وماذا عن حملات منظمة الصحة العالمية ؟ »

- « أنها ناجحة إلى حدّ كبير .. لقد انتهى المرض تقريبًا فى (غانا) و (نيجيريا) و (زائير) .. لكن المشكلة فى إفريقيا هى الانقلابات والحروب الأهلية الدائمة .. هذا يدمّر أى برنامج صحى محكم .. وفى كل مرة يكون علينا أن نبدأ من جديد .. »

- « وما دورك فى هذا كله ؟ »

- « لا دور لى .. لكنى أحاول أن أفعل .. »

وشرحت له بالتفصيل ما أقوم به من انتخاب السلالات ، ومحاولة العثور على الجين الذى يخلق إنزيم المقاومة ..

قال فى حماسة :

- « لحظة .. معنى هذا أن سلالة الذباب الحالية لا تُقهر ؟ »

هززت كتفى بشىء من فخر ، وقلت :

ـ « يبدو هذا .. على الأقل بالنسبة للسموم العضوية الفسفورية .. »

ـ « وهى تحمل عدوى مرضى النوم ؟ »

ـ « طبعًا .. »

بلل شفتيه بلسانه ، واتسعت عيناه حماسة ، وقال :

ـ « إن هذه الأقفاص تحوى كارثة بيولوجية حقيقية إذن ! »

ـ « ليس وأنا أتحكم فى كل التفاصيل بهذه الدقة .. »

ـ « ومتى تنوين الخلاص من هذا الكابوس ذى الجناحين ؟ »

ـ « عندما أنتهى من البحث عن ضالتى .. أجدها أو أيئس منها .. »

نهض مغادرًا المكان ، وهزّ إصبعه ينذرنى ، وهو ما لم أكن فى حاجة إليه على الإطلاق :

ـ « حذار .. حذار ! هذه الأقفاص هى حادث ينتظر أن يقع .. ! »

لكنى لم أكن خائفة .. أولا أنا أعرف تمامًا ما أفعله .. ثانيًا لست بهذه البراعة ولا أحسبنى خلقت شيئًا جديدًا .. بالطبع يمكن القضاء على هذه السلالة .. لكن هذا لن يتم بسهولة طبعًا ..

★ ★ ★

أقول للجنة الموقرة إن هذا هو كل ما حدث ، ولا أعتقد أنه يمكن استخلاص شىء منه .. ربما كنت حمقاء متسرعة ، وكان واجبى أن أخطر البروفسور (بارتلييه) بنوعية التجارب التى كنت أجريها ، لكنى كنت مطمئنة تمامًا .. كنت أشعر بأننى كمن يستنبت زهورًا فى غرفته .. أترانى بحاجة إلى طلب إذن المدير من أجل بعض الزهور ؟

بالطبع حدث السطو على معملى بعد هذا بثلاثة أيام .. أنتم تعرفون التفاصيل كلها من الأوراق ، لكن لا بأس بأن أحكى ما حدث من جديد ..

★ ★ ★

كان هذا فى صباح أحد أيام شهر (يوليو) عام ١٩٩٦ ..

فى الصباح فتحت باب معملى كعادتى ، لكنى وجدته مفتوحًا بالفعل .. وهو أمر غريب .. لا أحد يملك المفاتيح سواى .. من يدرى ؟ لربما نسيت إغلاقة أمس .. ودخلت المعمل لأدرك أن هناك عبثًا مخيفًا قد تم بكل شىء .. أوراق مبعثرة .. أقفاص زجاجية مقلوبة أو مهشمة .. ماذا اختفى ؟

اختفى جهاز صغير للتحليل .. إنه غالى الثمن لكنه ليس بالذى يغرى بالاقتحام .. اختفى كذلك جهاز تسجيل صغير ، ومجهران ..

كان قفص ذبابة (تسى تسى) مثقوبًا .. لقد تمزق السلك على جانب القفص محدثًا فتحة فى حجم قبضة اليد ..

هذا هو أخطر جزء فى الموضوع ، لأن القفص كان خاليًا تمامًا .. وسمعت الأزيز من حولى فاقشعر جلدى لهول الفكرة ، ورفعت ياقة معطفى كى أدارى عنقى

فيها كأننى سلحفاة عملاقة ، ودسست يدى فى جيبى المعطف ..

إن الزجاج كله موصد ولله الحمد ، ومعنى هذا أن الذباب كله بالداخل .. فقط علىّ أن أبحث عنه وأتأكد من إبادته ، وهى إبادة عسيرة طبعًا لأن هذه السلالة لا تموت بالمبيدات العادية .. أنها تحتاج إلى نوعين أو ثلاثة من المبيدات ترش فى وقت واحد ..

وهكذا بحثت وسط حاجياتى حتى وجدت أنبوبتين من المبيد ، فرفعتهما كل واحدة فى يد ، وكتمت أنفاسى وأطلقت سحابتين كثيفتين فى أرجاء المعمل .. للأسف كانت عندى عينات حشرية ثمينة ، لكنى الآن كنت أفكر فقط فى تطهير المعمل وقد قبلت فكرة خسائر لا مفر منها ..

أخيرًا انتهيت ، وقمت بالبحث فى أرجاء المعمل حتى تأكدت من أن هناك حشودًا لا بأس بها من ذبابة (جلوسينا) ملقاة فى كل صوب .. لقد تمّ تطهير المنزل كما يقول طاردو الأرواح الشريرة بعد تلاوة صلواتهم ..

فتحت النافذة ، وبدأت إزالة آثار كل هذه الفوضى .. هل أبلغ الإدارة ؟ قررت ألا أفعل .. لم يختف شىء ذو بال ، ولا أريد أن أحكى عن سلالة (الجلوسينا) التى تقاوم المبيدات ، والتى كادت تخرج من المعمل .. إن إتهامًا بالإهمال البحثى لابد أن يوجّه إلىّ ..

كيف فُتح المعمل من دون اقتحام ؟

إجابة سهلة جدًا لأن كل مفاتيح (سافارى) تفتح كل أبواب (سافارى) ، ويمكن أن تدس إصبعك فى أى ثقب مفتاح مطمئنا إلى أنه سينفتح ..

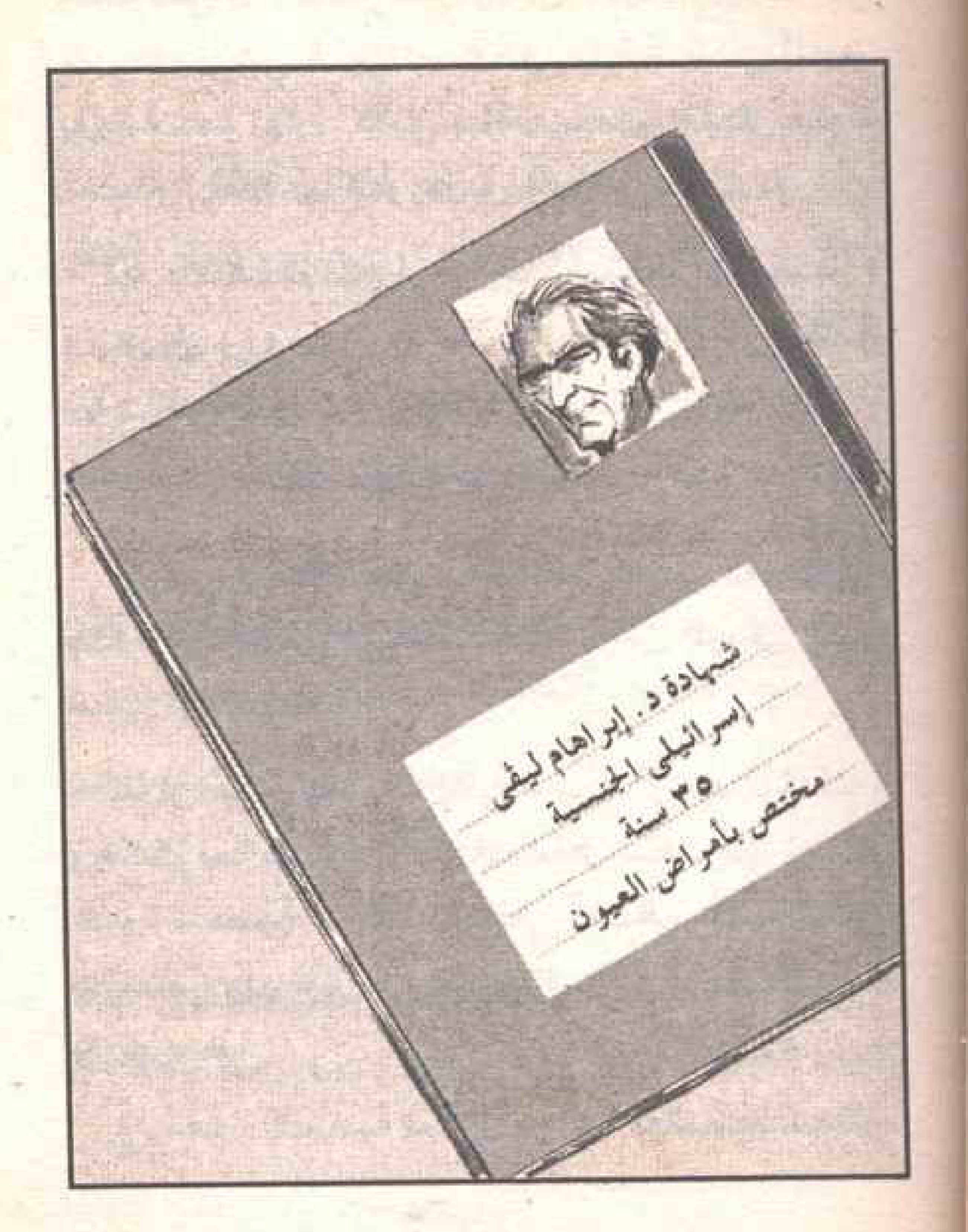
من فعلها ؟ سؤال مهم لكن إجابته ليست بهذه السهولة .. بالطبع فعلها لص ما .. لص يعمل فى (سافارى) ويملك عدة مفاتيح ..

لكنه سيلاقى عسرًا شديدًا فى بيع الأجهزة التى سرقها ، لأنه لن يجد من يعرف قيمتها هنا ..

★ ★ ★

هذا هو كل ما أعرفه عن الموضوع ، وأترك الباقى بين يدى اللجنة الموقّرة ..

هيلين ماكنيلى M.D
١٩٩٨



طلبت منى هذه اللجنة الموقرة أن أكتب تقريرًا بخطى عن دورى فى هذه القصة ، والحقيقة أننى أشعر بدهشة لاحدّ لها .. كأننى مطالب بتفسير انفجار مكوك الفضاء (تشالنجر) أو حريق (روما) ..

نعم يا سادة لم تكن لى أية علاقة بانفجار (تشالنجر) ولا حريق (روما) .. بالمثل لا أحسب أن لى علاقة بهذه القصة ..

★ ★ ★

أعرف أن هناك بعض الأشخاص عديمى المسئولية يحاولون توريطى فى هذه القصة ، عن طريق إقحام اسمى فى التحقيقات .

أنا لن أذكر أسماء .. لكنى أعرف واحدًا بالذات ، وهذا الواحد يملك كل الأسباب ليفعل ذلك . إنها ليست عداوة شخصية .. إنه يكرهنى لأسباب عامة تتعلق بجنسيتى وديانتى .. وكل أفراد وحدة (سافارى) يعرفون هذا .

إن معاداة السامية لم تزل من هذا العالم مهما تحضّر

البشر ، واستعملوا الحاسب الآلى ، وركبوا السيارات الحديثة ، وأكلوا بالشوكة والسكين ، وتاريخ قومى فى الحرب العالمية الأخيرة يثبت هذا .. لقد كانت أوربا وأمريكا فى قمة التحضر ، لكن هذا لم يمنع (أدولف هتلر) من إلقاء بضعة ملايين من قومى داخل الأفران وغرف الغاز ..

الآن ما زال هناك من يرغبون فى إلقاء كل يهودى فى البحر ، ويحاربوننا دون هوادة ، ويكرهوننا خمسين عامًا بلا تعب ...

لا أحاول أن ألقى تلميحات إلى اللجنة الموقرة ، لكنى لا أنصح أحدًا بسماع شهادة العربى التى تتهم إسرائيليًّا ..

إن عضو (سافارى) المذكور قد اتهمنى بكل شىء ممكن منذ التحق بهذه الوحدة ، وهى اتهامات يؤسفنى أنه لا يوجد ما يبررها ..

إنه لم يستطع أن يسمو بنفسه إلى مستوى عالم اليوم المتوحّد الذى لا يعرف فوارق ما بين الأجناس والديانات ..

أنا هنا لا أمثل بلادى ، ولست من رجال مخابراتها ..
أنا مجرد طبيب عيون يبحث عن الحقيقة المقدسة كما فعل أجدادى العظام (متشنكوف) و (إرليخ) ، وقد فعلت ...

أعتقد الآن أن اللجنة الموقرة يجب أن تفكر ـ ضمن الخيارات المطروحة أمامها ـ فى أنهاء التعامل مع هؤلاء الأشخاص بالذات الذين لم ولن يكفوا عن كراهية اليهود .. ولو بحثت اللجنة لوجدت أن سجل هؤلاء حافل بكل ما يشين فى هذا الصدد ..

إن وجود شخص بهذه العقلية المحدودة فى تنظيم دولى محترم مثل (سافارى) لخطأ جسيم ، لكنه ليس من الأخطاء التى لا يمكن إصلاحها بجرّة قلم ..

أما عن المشكلة التى طلبت فيها شهادتى ، فلا أعرفُ عنها شيئًا لأننى لست خبير طفيليات ، لكن هذه الوحدة قادرة على العثور على حلّ ، كما أن بلادى مستعدة تمامًا للمعاونة باعتبارها تحوى خبراء فى كل شىء ، فقط لو أن أحدًا دعاهم لحلّ المشكلة .

هذا هو كل ما فى جعبتى يا سادة ، وإننى لأشكركم

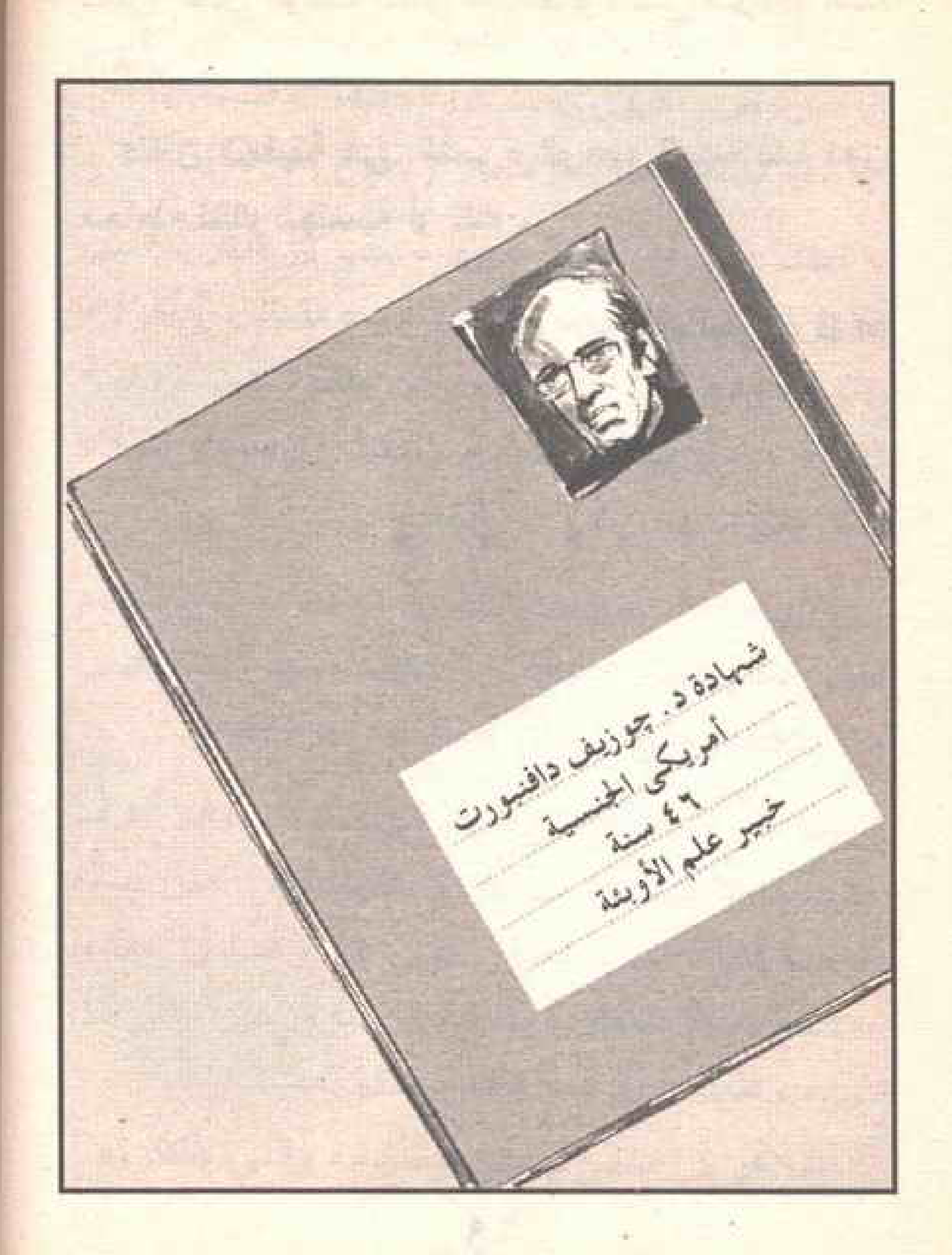
كثيراً على الوقت الذى أضعتموه فى قراءة هذا التقرير .

فلتكن الحقيقة هى الشىء الوحيد المهم لكم دون مجاملة لتلك الجنسية أو تلك .

إبراهام ليفى ـ M.D
١٩٩٨







ـ ١ ـ

طلبت منى لجنة التحقيق أن أقول ما أعرفه عن أحداث معينة ، وقعت فى عام ١٩٩٦ ، وهو زمن بعيد نسبيًا ، خاصة وأننى لا أحتفظ بمذكرات دقيقة .. لكنى سأحاول أن أتذكر ..

* * *

كنا فى صيف ١٩٩٦ ، فى وحدة (سافارى ـ ٤) الموجودة فى (الكاميرون) ، وكنت أنا خبير أوبئة أعمل هناك تحت إدارة البروفسور (مايرز) خبير الطب الوقائى الشهير ..

كنت أعيش هناك مع زوجتى وطفلى البالغ من العمر سبعة أعوام ، وأعتقد أن (سافارى) حققت لى الدخل المستقر الذى أصبو إليه ، لكنى كنت أنتظر دومًا اللحظة التى أعود فيها إلى المدينة لأنعم بهذا الدخل .. إن إفريقيا بالنسبة لى وسيلة لا غاية .. أعرف أن هذا الكلام لا يقال عادة ، لكن ليس بوسع

كل منا أن يصير (ألبرت شفايتزر) الذى كانت إفريقيا غايته النهائية ..

نعم كنت أمقت حرارة الجو والقذارة والهواء الذى يفوح بالأوبئة .. إن (الكاميرون) ليست (الكونغو) بالتأكيد .. أنها على اتصال بالحضارة ، ويوجد وعى صحى لا بأس به .. لكننى كنت أتوق إلى شوارع (نيو يورك) وملاهى (برودواى) ورائحة الليل الأمريكى ..

فى هذا الوقت طلب منى البروفسور (مايرز) أن أتجه إلى مصر .. ولماذا ؟

لأن حمى الوادى المتصدّع ـ وهى كما تعرف اللجنة حمى نزفية خطرة ـ قد ظهرت فى مصر مرتين .. مرة فى السبعينات ومرة فى أوائل التسعينات ، وقد انقشع الوباء ، لكنه كان راغبًا فى دراسة الظروف البيئية فى قرية مصرية ، تلك الظروف التى قد تؤدى إلى وباء جديد ..

ـ « ولكننى كنت ذاهبًا إلى الولايات .. »

ـ « فقط سيتأخر موعدك أسبوعين .. »

حاولت التهرب من جديد . فقلت :

ـ « لم نتبادل المراسلات للتنسيق مع (النمرو)(*) أو المكتب الإقليمى لمنظمة الصحة العالمية .. »

قال البروفسور الألمانى بلهجة من لا يقبل النقاش :

ـ « ومنذ متى نعمل معهم ؟ أنت ستكون مستقلاً تمامًا ، كما فعل (كوخ) حين ذهب إلى مصر ليدرس (الكوليرا) منذ قرن كامل .. »

وأردف وهو يناولنى خطة الدراسة :

ـ « ستلتقط صورًا .. سترسم خارطة .. ستبحث عن البعوض .. هذا سهل ..

لم أر شيئًا سهلاً فى الموضوع .. تخيل نفسك فلاحًا فى قرية مصرية ، تجد أمامك فجأة رجلاً أجنبيًا لا تعرفه يرسم خرائط ويصوّر .. إن لم تعتبره مجنونًا

(*) النمرو هى اختصار للحروف الأولى من عبارة (وحدة الأبحاث الطبية للبحرية) . ومقرها بالعباسية ..

فلسوف تعتبره جاسوسًا قذرًا ، وتقتله بالفأس ..

كأنما سمع (مايرز) ما يجول بذهنى ، قال :

ـ « لن تكون وحدك .. هناك طبيب مصرى سيرافقك .. »

ـ « من وزارة الصحة المصرية ؟ »

ـ « بل من (سافارى) نفسها .. إنه (علاء عبد العظيم) .. هل تعرفه ؟ »

هززت رأسى أن نعم ، فأردف :

ـ « .. (علاء عبد العظيم) شاب نشط ومتحمس ، وهو ذاهب إلى وطنه فى إجازة خلال أيام .. سيكون هو دليلك هناك .. »

هززت رأسى فى غير حماس ، وصدعت بالأمر ..

★ ★ ★

ليست لى علاقة معينة بـ (علاء عبد العظيم) .. أعرف أنه مشاغب وأن المدير (بارتلييه) يميل إليه ، وأنه كان ذا دور مهم فى عدة أزمات آخرها أزمة الجنون الذى أصاب الحيوانات ..

فى ذلك الوقت ـ عام ١٩٩٦ ـ لم أكن أعرف عنه شيئًا على الإطلاق ، فيما عدا ما عرفته من معاداته الصريحة للإسرائيلى (إبراهام ليفى) .. هذا شىء طبيعى بالنسبة لكونه عربيًا ، لكنى أعترف هنا أن (ليفى) صديقى .. وصديق عزيز علىّ ..

ذات مرة تجادلت مع (عبد العظيم) حول هذه النقطة بالذات ، وكنا فى كافتريا (سافارى) نشرب القهوة الرديئة التى اشتهرت بها (سافارى) فى العالم كله ..

اتهمت (عبد العظيم) بمعاداة السامية والعنصرية ، وأنا لست بالمناسبة يهوديًا .. أنا WASP بالمعنى الحرفى للكلمة .. أى (أبيض أنجلو ساكسونى بروتستانتى)(*) وبالتالى لا يوجد ما يدفعنى للدفاع عن اليهود ..

قال (علاء) وهو يجرع قهوته :

(*) White Anglo Saxon Protestant وهو فى الغالب أميل للعنصرية والتعصب .

- « هذه هى التهمة التى يوجهها إلىّ كل غربى ألقاه هنا ، وفى كل مرة أقول نفس الشىء : أنا لا أكره اليهود لكنى أكره الصهاينة .. وأصارحك أننى سئمت ترديد هذه العبارة كأننى أنفى تهمة عن نفسى ..

بينما الصهاينة لا يكفون عن إعلان كراهيتهم للعرب وذبحهم ، دون أن يتهمهم أحد بالعنصرية ومعاداة السامية .. أنا لا أكره اليهود وبينهم من هو مثل (أينشتاين) و (شارلى شابلن) و (متشنكوف) ، لكنى أكره تلك العصابة التى اعتبرت نفسها تحمل توكيل يهود العالم ، والتى لا تكفّ عن ابتزاز الغرب من أجل المحارق النازية ، التى لايعلم سوى اللّه حقيقتها .. »

هكذا صار الجدل مع هذا الشاب عند جدار مسدود ..

إنه ينكر (الهولو كاست) ، وينكر حق (إسرائيل) فى الوجود ، وينكر حق (إسرائيل) فى تمثيل يهود العالم ..

لم أتشاجر معه ، لكنى أدركت أننا لن نكون صديقين أبدًا ..

وحين عرفت أن علىّ مرافقته فى بلده لمدة أسبوعين ؛ بدت لى الفكرة منفرة ، لكن ليس هذا أصعب ما يواجهه المرء فى مهنتنا هذه ..

★ ★ ★

وجاء الموعد ، وسافرنا إلى مصر معًا ..

★ ★ ★

- ٢ -

من البداية لم يكن (علاء) متحمسًا لمرافقتى ، وأنا كذلك .. إن اللون القرمزى لا ينسجم مع اللون البنى مهما حاولت ، لكنه كان فى مهمة رسمية وقد أوصاه البروفسور (بارتلييه) مدير الوحدة بأن يعاوننى ويحاول تذليل العقبات التى ستعترض بحثى لا محالة ..

وفى القاهرة ، استقررت فى أحد الفنادق ، بينما لحق هو بأسرته التى كانت بانتظاره فى المطار . إنه من بيئة متوسطة أو أدنى من متوسطة لكنهم متعلمون . لقد خيَّبت القاهرة آمالى لأننى كنت أتوقعها واحة كبيرة تجوبها الجمال ، وتفعمها البيوت ذات القباب الشبيهة ببيوت ألف ليلة وليلة .. هكذا عوّدتنا السينما الأمريكية ، لكن ما رأيته هنا كان مدينة عصرية عادية جدًا ..

بعد يوم اتصل بى فى الفندق ، وبالطبع لم يدعنى إلى

مشاهدة آثار مصر الشهيرة ، لأنه لم يعتبر نفسه لحظة دليلاً سياحيًا لى ..

كان مهذبًا باعتبارى ضيفه وزميله .. لكنه وضع لنفسه حاجزًا لا ينوى اجتيازه أبدًا .. وكذلك أنا لم أنو اجتيازه ..

اتصل بى - كما قلت - وقال لى إنه يريد مواصفات القرية التى أريد أن أبدأ فيها .. حدّدت له المواصفات ، فبدا راضيًا وقال إن أحد أصدقائه يعيش فى قرية مماثلة .. لقد نسيت اسم الصديق ، لكن القرية اسمها (...) فى محافظة تُدعى (...) ..

كنت أعمل من دون إمكانيات تقريبًا ، مثلى مثل (كوخ) حين كان يركّب أجهزته بنفسه فى عيادته الريفية الصغيرة ، لكنى كنت أعرف أننى سأحصل على ما يريده (مايرز) .. لن يعجزنى هذا ..

★ ★ ★

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى حملنا رحالنا متجهين إلى القرية ..

وكانت لى تجربة لا بأس بها وسط تلك الطرق الوعرة الغريبة ، فى وسائل مواصلات تعود إلى الخمسينات من هذا القرن ..

كانت القرية ـ كما فهمت ـ من القرى الفقيرة التى ما زالت تحتفظ بطابعها ربما من أيام الفراعنة .. نفس طرق الرىّ والبيوت الطينية ، وكانت تطلّ على مصرف .. لكن ـ الغريب ـ لم تكن الملاريا من الأمراض المتفشية فى مصر فى التسعينات .. كان هناك بعوض كثير لكن لا توجد حالات ملاريا على قدر علمى ..

وقد رحب بنا صديق (عبد العظيم) الذى كان ينتظرنا فى القرية ، ويبدو أنه صديق طفولة قديم له .. وكان يعاملنى من منطق (أصدقاء أصدقائى هم أصدقائى) ، لكنه لم يكن يجيد الإنجليزية ، وكان (علاء) يتولى الترجمة وإفهامه ما أريد ..

حصلت على خارطة كروكية للقرية ، وبدأت أسأل صديق (علاء) عن نشاط السكان فى تلك القرية ، وعن تعدادها ، ووضعها الصحى .. إن إجاباته تقديرية طبعًا ، لكنى لن أطالب بما هو أكثر ..

قمنا بعد هذا بزيارة لعمدة القرية فى داره ، وهى الوحيدة المبنية من القرميد هنا .. كان الرجل متشككًا غير راغب فى معاونتى من دون أوراق رسمية ، لكن (عبد العظيم) قال له كلامًا كثيرًا أقنعه ..

ومن هنا صار تحركنا سهلاً .. مشى معنا أحد الخفراء ـ رجال الدرك ـ وهكذا انفتحت لنا أبواب كثيرة ، وأمكننى التقاط العديد من الصور داخل المنازل .. كما حصلت على عينات من دماء بعضهم ، وبعض البعوض من أنواع متباينة .. إن التقرير المرفق بهذه الشهادة يلخص كل شىء ، ويمكن للجنة الموقرة الاطلاع عليه ..

بعد هذا طلبت أن أرى منطقة المصرف ، وهى منطقة تحيطها الأشجار وتظللها بحيث تحجب ضوء الشمس تمامًا فى عدة مواضع ..

يبدو أن هذه المنطقة كانت هى نادى القرية .. الشيوخ يجلسون على الأرض يدخنون ويرمقوننا فى شك ، والشباب يلهون ويصطادون السمك ويتبادلون عبارات السخرية ..

كان الجو حارًا بطريقة لا تصدّق ، والرطوبة عالية إلى حدّ كبير ، مما جعل قميصى يبتلّ عرقًا ، والإرهاق يغمرنى .. لكنى قمت بمهمتى خير قيام .. وقد جلس الشابان المصريان - (عبد العظيم) وصاحبه - يشربان الشاى ويتحدثان ، بينما رحت أجوب المكان ، وألتقط له بعض الصور الفوتوغرافية ، وأخذت عينات عدّة من الأعشاب ، والنباتات ، وما وجدته من حشرات ..

هنا تختلف قصتى عن قصة (عبد العظيم) ..

★ ★ ★

هو يزعم أنه وجدنى أفتح علبة من الورق المقوى امتلأت جوانبها بالثقوب ، وألقيها على الأرض ثم أبتعد فى حذر بضع خطوات .. كان بعيدًا جدًا فلم ير ما بداخلها ولا ما خرج منها ..

فقط قال إننى أخرجتها من (جربندية) خاصة على ظهرى ، وأننى بعدما فتحتها تراجعت وقلت لهم إن عملى قد انتهى ، وحان وقت العودة إلى القاهرة ..

(عبد العظيم) يزعم هذا وقد قاله للجميع ، لكنى أقول للمرة الألف إنه كاذب أو هو - على أحسن الأحوال - مريض بداء (البارانويا) ..

كل ما هناك هو أننى كنت أحمل بعض العلب التى لا داعى لها ، وقد قررت أن أتخلص منها هنا .. لم لا ؟ الكلّ يلقى بفضلاته على جانبى المصرف ، ولن أكون أول ولا آخر من يفعلها ..

كنت قد أنهيت مهمتى بعد يوم من العمل الشاق ، ولم يعد هناك مزيد أفعله فى هذه القرية ، لذا قررت أن أعود ، وأن أبدأ غدًا فى قرية أخرى ..

وهكذا عدنا معًا بنفس المواصلات الرهيبة ..

★ ★ ★

استرحت يومًا فى الفندق ، ثم بدأت مشاهدة معالم مصر الشهيرة .. لم أحبّ الأهرام كثيرًا لكنى أعجبت بالمتحف المصرى ، وقضيت يومًا فى الإسكندرية ، وعدة أيام فى (الغردقة) ..

لم ألق (عبد العظيم) إلا بعد عشرة أيام ، وقد سألته أن يعاوننى فى مسح قرية أخرى أو قريتين لهما نفس الظروف البيئية السابقة ..

اعتذر لى لأنه لن يتمكن بسهولة من ترتيب زيارة لقرية مماثلة ، ما لم توجّه له السلطات أسئلة .. لا بد من معرفة دوافع ومبررات طبيب أجنبى يدرس تفاصيل بيئة قرية مصرية ، خاصة لو لم يكن له أحد أو صديق فيها .. لا بد من إخطار وزارة الصحة المصرية إذن ..

- « إذن أريد العودة إلى قرية صديقك هذه .. »

هزّ رأسه موافقًا ، ورتب لى رحلة أخرى معه ..

★ ★ ★

فى اليوم التالى عدت إلى نفس الموضع السابق جوار المصرف .. تأكدت من أننا نهارًا وأن الشمس تملأ الأفق ، ثم رحت أفحص الأعشاب وجذوع الأشجار جوار الماء .. - هذه نقطة أخرى يتهمنى (عبد العظيم) فيها - .. والحقيقة هى أننى كنت بحاجة لذلك

بحثًا عن البعوض ، ولنفس السبب قمت بجمع عينات من المياه الراكدة بحثًا عن اليرقات . والتقطت المزيد من الصور ..

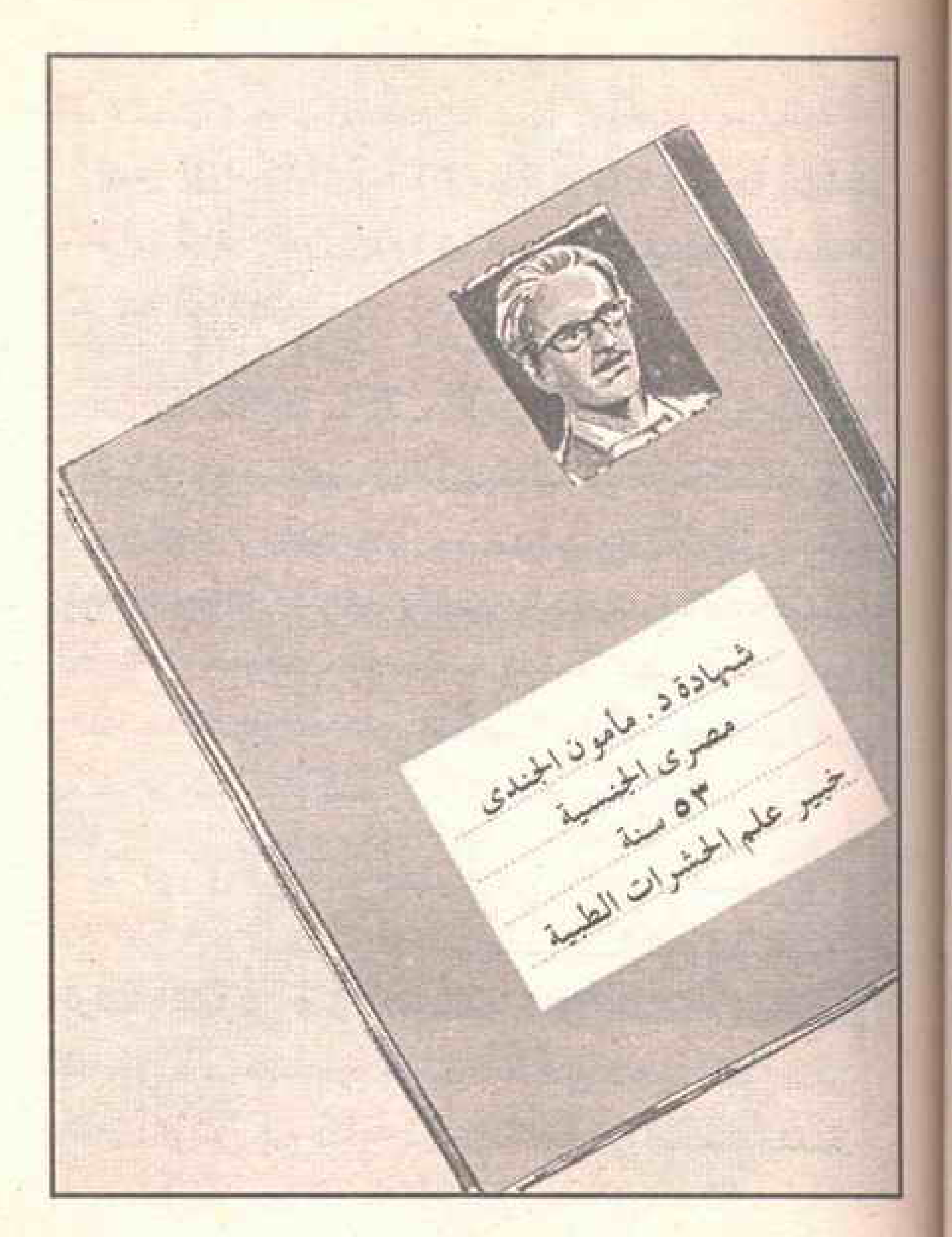
سألنى وهو يعبث فى لحيته وعيناه لا تفارقان عينى :

- « قلت لى منذ عشرة أيام إنك انتهيت من مسح هذه القرية ؟ »

قلت له فى صبر :

- « ثمة ثغرات .. لا بد من ثغرات .. وهذه أشياء لا يدركها المرء إلا حين يرتب أوراقه ، ويعرف بالضبط ما حصل عليه ، وهو جالس فى هدوء على الفراش فى غرفة الفندق .. »

وكان العمل مختصرًا فى هذا اليوم .. لم أجمع نفس القدر من العينات ، ولم أحصل على دماء .. أنهيت كل شىء قبل الرابعة عصرًا ، وأعلنت أننى مستعد للعودة إلى القاهرة .. ربما مستعد للعودة إلى (الكاميرون) أيضًا ..



بدت عليه الراحة ، فمن الجلىّ أننى جعلت إجازته جحيمًا ، خاصة وهو عاجز عن السفر أو الاختفاء عنى .. يبدو أن أخاه كان ينوى قضاء أسبوع فى أحد المصايف ، لكن (عبد العظيم) جعله يرجئ مشروعه هذا حتى ينتهى من أمرى ..

شكرت الشاب المصرى ، وفى اليوم التالى كنت على متن الطائرة ..

على (مايرز) أن يقنع بهذه العينات من قرية واحدة ، مادام لا يريد أن ينفذ المشروع على نطاق أوسع ، وبالتنسيق مع الحكومة المصرية ..

كان هذا فى شهر أغسطس ١٩٩٦ ..

ولا أدرى ما الذى أثار الموضوع مرة أخرى عام ١٩٩٨ ؟ أرجو أن أفهم ما هو أكثر .

جوزيف دافنبورت M.D

١٩٩٨

- ١ -

ليس لى علاقة بوحدة (سافارى) ، ولربما ما كنت لأعرف شيئًا عن وجودها لو لم تقع هذه الأحداث الغريبة فى وطنى ..

* * *

أنا د . (مأمون الجندى) أستاذ علم الحشرات بكلية العلوم جامعة (...) وقد عملت فى عدة مناصب سابقة أكثرها يتعلق بالحشرات ذات الأهمية الطبية ، وقد عملت مع منظمة الصحة العالمية لفترة ما ، وانتدبت للمعاونة على استئصال شأفة الملاريا فى وسط إفريقيا .. (السيرة الذاتية مرفقة بالتقرير) ..

بدأ دورى فى هذه القضية فى أحد أيام شهر يوليو عام ١٩٩٨ .. كنت قد أنهيت إجازتى الصيفية ، وتركت أسرتى فى الشاليه الذى أملكه بالساحل الشمالى ، وعدت إلى القاهرة .. من ناحية كى أنهى بعض أعمالى فى الكلية ، ومن ناحية كى أستمتع بالسلام

النفسى الشفاف ، الذى يحققه لك الخلاص من ثلاثة مراهقين وزوجة لا تكف عن الكلام .. هذه تفاصيل قد لا تهم اللجنة الموقرة ، لكنها توضح لهفتى إلى الانفراد بنفسى ..

اتجهت إلى مكتبى بالكلية ، حيث الهدوء شامل يذكرنى بـ (هيروشيما) بعد سقوط القنبلة الذرية .. أكثر المكاتب مُغلق ، وعمال القسم جالسون يشربون الشاى ويثرثرون بصوت خفيض .. لا طلبة يتشاجرون أو يقهقهون بصوت عال ينتزعك انتزاعًا من تربة تركيزك ..

هكذا رحت أطالع البريد الذى وصلنى فى فترة غيابى ، حينما سمعت قرعات الباب ودخل من عرفت فيما بعد أنه د . (علاء عبد العظيم) ..

كان شابًا على شىء من الوسامة .. له لحية تحيط بفمه وتذكرنى بصورة ذلك المطرب ـ أظن أن اسمه (جورج مايكل) ـ المعلقة فى غرفة نوم ابنى .. وهو مهذب ـ الشاب وليس ابنى طبعًا ـ عصبى قليلاً ، ومن

الواضـح أن تماسكه النفسى هـشّ جـدًا ، بمعنـى أنـه يمكن أن يتشاجر أو يصرخ أو يضرب لـدى أى استفزاز ..

عرفنى بنفسه ، وطلب أن أمنحه بضع دقائق من وقتى .. والحقيقة هى أن وقتـى ثمين .. وليس أعزّ علىّ من لحظات الهدوء هذه ، لكن الفتى كـان مهذبًا كما قلت ، وكـان قانطًا مرتبكًا ممـا جعـل الاعتـذار عسيرًا ..

ـ « استشارة هى ما أبغى .. »

ابتسمت وقلت لـه تلك الدعابة القديمة عن سعر (الفزيتة) مقابل الاستشارة ، إنـه طبيب ويفهم هذه الأمور جيدًا ..

لكن الفتى كان فاقدًا لروح الدعابة تمامًا ولم يبتسم أو يقل شيئًا .. فقط أخرج من جيبه علبةً حمـراء صغيرة من القطيفة ، كتلك العلب التى يضعون فيها خواتم الزواج .. فتحها فوجدت أنها مبطنة بالشاش ، وفوق الشاش استقرت أربعة أجسام سوداء صغيرة ..

مدّ يده ليدنى العلبة منى ، وقال ويده ترتجف :

ـ « هذه الذبابة .. ما رأيك فيها ؟ »

أخرجـت (جفتًـا) مـن الـدرج الأيمـن لمكتبـى ، وأمسكت بتلك الذبابـة الصغيرة وقربتها من أنفـى .. بسبب قصر النظر لا أكثر ، لأننـى عرفت نوعها من النظـرة الأولـى وهـى فـى العلبـة .. فقـط أردت أن أتأكد ..

قلت له وعيناى مثبتتان على الجسم الأسود المشعر الصغير :

ـ « لا توجد ذبابة أخرى ينغلق جناحاها على شكل شفرتى المقص حين لا تطير .. هذه يا بنى ذبابة (جلوسينا) .. أو بعبارة أقـرب لفهمك هـى ذبابـة (تسى تسى) .. »

ولما كان قد حكى لى أنه جاء من (الكاميرون) ؛ سألته باسمًا :

- « هل تجىء بتذكارات معك ؟ »

وتذكرت دعابة قديمة مماثلة لا أذكر تفاصيلها بالضبط لكنها .. هنا قال لى مقاطعًا أفكارى ، وقد بدا عليه توتر شديد :

- « هذا الذباب وجدته فى قرية .. قرية مصرية ! »

* * *

إن ذبابة الـ (تسى تسى) تسيطر على مساحات شاسعة من إفريقيا ، من خط العرض ١٥ شمالاً إلى خط العرض ٣٠ جنوبًا ، وإذا أردنا الدقة لقلنا أنها تحتل نصف مساحة القارة تقريبًا ..

توجد أنواع عديدة من هذه الذبابة ، و (الكاميرون) نفسها تضمّ نوعين منها ، لكن خطر الذبابة يكمن فى نوعين منها : (بالباليس) و (مورسيتانز) . النوع الأول ينقل داء النوم الجامبى ، والنوع الثانى ينقل داء النوم الروديسى ، وأعترف أننى لا أعرف الفارق الطبى بين الداءين .. لكن من المؤكد أن النوع الثانى أسرع وأشد فتكًا بالإنسان ، والسبب هو أن طفيل

(تريبا نوسوما) الموجود بالنوع الثانى من الذباب أقل تأقلمًا على الإنسان .. إنه ميّال للحيوانات الوحشية أكثر ، وهكذا تكون زيارته للإنسان شرسة وقحة ، كضيف مشاغب لم يعتد الحفلات يجد نفسه فى حفل راق ..

إن الفوارق بين أجناس الـ (جلوسينا) دقيقة يمكن معرفتها عن طريق أجزاء الفم ، وشكل الأوردة على الجناحين ، لكنها لا تهم سوى عشاق الحشرات مثلى ..

يجب أن أقول هنا إن الذباب الذى رأيته مع الفتى ، كان من النوع (بالباليس) الذى ينقل داء النوم الجامبى ، وهو نوع لا نجده فى (الكاميرون) ..

لا بأس يا بنى .. لكن لا تقل إنك وجدت هذا الذباب الاستوائى فى قرية مصرية .. كفاك سخفًا ! لا وقت لدى للمزاح ..

* * *

- « أقسم باللّه العظيم إننى وجدته فى قرية (...) »

وأخذ شهيقًا عميقًا ، وكرر القسم من جديد ، وفى هذه المرة شعرت بالشعر يتصلّب على مؤخرة عنقى ..

لو كان ما يقول صوابًا لكانت كارثة ..

كارثة ..

★ ★ ★

- ٢ -

فى الساعة التالية حكى لى الفتى كيف وجدنى ..

- « إن لى صديقًا يعرف رجلاً يعرف صديقًا ، تتلمذ على يد سعادتكم ، وهو - أعنى صديقى الذى يعرف رجلاً - واثق من أنه لو كان فى مصر من يفهم فى ذباب الـ (تسى تسى) ، فهو سعادتكم .. و .... »

قاطعته بكفى المفتوحة :

- « مفهوم .. مفهوم .. اختصر يا صديقى .. »

ثم وجهت له السؤال الأهمَ فى هذه الجلسة :

- « كيف حدث هذا ؟ »

★ ★ ★

كانت القصة بسيطة جدًا تتكون من جزأين .. الجزء الثانى حدث هذا العام بالذات ؛ وهو عبارة عن زيادة مريبة فى حالات النوم بين أهالى القرية المذكورة ،

وهو نوم ينتهى بالغيبوبة دائمًا .. والغيبوبة تنتهى بالوفاة فى كل الأحوال ..

لقد فكّر الفتى فى الالتهاب السحائى أو المخى أو الغيبوبة الكبدية ، لكن هذه الأسباب لم تكن تفسيرًا كافيًا ، برغم أنها تقريبًا هى الأسباب الوحيدة للغيبوبة فى مصر .. (طبعًا لا داعى لذكر غيبوبة السكر والفشل الكلوى والتسمم العامّ) ..

ظهرت ستّ حالات ، وكلها كان أصحابها يأتون بتصرفات غريبة منذ عام أو أكثر ، وكلهم كانوا يعانون بلادة غير عادية .. البعض كان يعانى من حكاكًا جلديًا شديدًا فى البداية .. و ..

هنا خطرت للطبيب الشاب القادم من غرب إفريقيا فكرة جامحة إن لم تكن مجنونة .. هذه الأعراض تشبه إلى حدّ كبير أعراض مرض النوم التى عرفها فى إفريقيا ، وحفظها عن ظهر قلب ..

لكن مرض النوم لا يمكن أن يدخل مصر ، لأسباب بيئية واضحة للجميع .. إن ذبابة (تسى تسى) التى

تحمل المرض لا تعيش أبدًا شمال خط عرض ١٥ .. ومعنى هذا أنه يصعب أن تراها شمالى الخرطوم ..

وذهب الفتى إلى القرية .. وراح يفتش بعناية عن مكان مناسب لتكاثر الذباب .. إنه يعرف جيدًا أن ذبابة (تسى تسى) التى تنقل داء النوم الجامبى تعيش قرب مسطحات المياه التى تحيط بها الأشجار الكثيفة .. إنها تعشق الظلّ ..

فى هذا تختلف (جلوسينا بالباليس) عن (جلوسينا مورسيتانز) فى أن الأخيرة تعشق (السافانا) ، ولا تهوى مكانًا بعينه ، لكنها تتنقل فى كل صوب .

ولهذا يهاجم النوع الأول صيادى السمك والملاحين ، بينما يهاجم النوع الثانى صيادى الوحوش وجامعى العسل والسيّاح المعتوهين ..

نعود لما كنا نقول ..

لقد راح طبيبنا المصرى الهمام يفتش وسط الخضرة الدانية من الأرض ، على جانبى المصرف ..

أخيرًا استطاع أن يجد تجمعات لا بأس بها من هذه الذبابة العجيبة ، وقد قتل ستًا منها كى يعرضها على من يهمه الأمر .

أما الجزء الأول من القصة ، فهو أن الطبيب المصرى جاء إلى هذه البقعة بالذات منذ سنتين ، مع طبيب أمريكى من ذوى الأعناق الحمراء .. كان الطبيب الأمريكى يعمل تحت مسمى (دراسة بيئة حمى الوادى المتصدع) ، لكن د. (علاء عبد العظيم) يؤكد أن الأمريكى قام بإفراغ محتوى علبة من الورق المقوى على جانب النهر .. ثم أنكر بحسم أنه فعل ..

لقد تذكر (علاء) هذه الحادثة بالذات ، لأنها العلاقة الوحيدة بين ما يراه هنا فى مصر وبين خبراته السابقة فى (سافارى) .. لو دخلت ذبابة (تسى تسى) مصر فلن يجلبها سوى أحد العاملين فى المناطق الموبوءة .. هو لم يفعل فمن فعلها إذن ؟

إن فترة عامين كافية جدًا كى تؤدى الذبابة عملها ، وتبدأ الصورة المرضية لدى الأهالى ، وسرعان ما تجد

أجيال الذبابة الجديدة ما تريده : مرضى تأخذ منهم العدوى وأصحاء تنقلها لهم ..

★ ★ ★

لكن الموضوع ليس بهذه البساطة ، وقد طرحت على (علاء) بضعة أسئلة ، وكانت إجاباته مقنعة على الأقل لى :

س ـ هل كان الذباب يحمل العدوى حين دخل مصر ؟

ج ـ بالتأكيد .. وإلا ما حدث شىء ، ولما زاد خطر الذبابة عن خطر ذبابة المنازل العادية ...

س ـ كيف استطاع الحياة فى بيئة مغايرة مثل مصر ؟

ج ـ أنت لم تر القرية التى كنا فيها .. أنها حارّة جدًا رطبة جدًا .. وتوجد غابة من الغصون المتشابكة على سطح الماء .. أنها بيئة شبيهة جدًا بما تصبو إليه الذبابة ..

س ـ هل تعتقد بحق أن هذا تمّ بفعل فاعل ؟

ج ـ بالتأكيد .. لا يمكن أن تكون الذبابة قد التصقت بشعرى طيلة الطريق من (الكاميرون) إلى هذه القرية ..

س ـ وما الذى يستفيده الفاعل ؟

ج ـ لا أدرى .. الإيذاء طبعًا ..

س ـ كارثة بيولوجية ؟ لكنها طريقة بطيئة جدًا .. ألا ترى أن هناك حلولاً أكثر فاعلية وسرعة ؟ إن حرب الميكروبات يمكن أن تأخذ صورًا أفضل من حفنة ذباب تصيب حفنة بشر بمرض النوم ..

ج ـ كلام صائب ، ولا أجد إجابة جليّة سوى ما رأيت ..

س ـ هل أنت واثق من أن هؤلاء الفلاحين ماتوا بمرض النوم ؟

ج ـ هذا ما سأطالب وزارة الصحة بنفيه أو إثباته .. لكن العلامات السريرية لا تُدحض ..

س ـ لكنك تعلم أنك لن تصل للحقيقة ما لم تجد (التريبانوسوما) فى دم المرضى أو نخاعهم الشوكى ..

ج ـ هذا صحيح .. لكن أخذ عينة من النخاع الشوكى لمريض بداء النوم يعجّل بنهايته .. إنه يساعد على دخول (التريبانوسوما) إلى الجهاز العصبى

لو لم تكن قد دخلت .. إنه تصرف شبيه بإشعال النار فى دارك كى ترى على ضوئها ما إذا كنت قد نسيت نارًا مشتعلة فى مكان ما ... ولنفس السبب مات أكثر هؤلاء المرضى خلال ساعات من فحص النخاع الشوكى .. عندها كان المستشفى يتخلص من العينات ولا يختبرها تحت المجهر .. وعلى كل حال .. لابد لمن يبحث عن (التريبانوسوما) أن يتوقع وجودها ، وإلا فاتته بسهولة ..

س ـ وماذا تنوى عمله بالضبط الآن ؟

ج ـ بالطبع إبلاغ وزارة الصحة وأجهزة الطب الوقائى ..

قلت له وأنا أضع الأوراق فى مكتبى :

ـ « فى البداية لابد من أن أذهب هناك بنفسى ، وأرى كل شىء على الطبيعة .. »

★ ★ ★

ومشينا فى القرية بينما الفلاحون يرمقوننا بدهشة وفضول .. إنهم يعرفون (علاء) جيداً لكننى كنت غريباً ،

والغريب فى القرية لافارق بينه وبين كائنات المريخ الخضراء ذات الهوائيات ...

سألنى (علاء) وهو يرفع يده بالتحية لبعض الرجال :

ـ « ألا تخاف لدغة هنا أو هناك ؟ »

ـ « الستَار موجود .. هذه نقطة مهمة .. ثانياً أنا أعرف جيداً أن هذا الذباب لايتغذى إلا ليلاً .. من وقت الغروب إلى وقت الشفق .. بالمناسبة كنت أودّ سؤالك نفس السؤال .. »

ـ « إنهم يطعّموننا فى (سافارى) .. بحقنة (بنتاميدين) كل ستة أشهر .. تمنح وقاية لا بأس بها .. »

ووصلنا إلى المصرف .. كان بحق قطعة من أدغال إفريقيا تم قصها بالمقص ولصقها هنا على دلتا وادى النيل .. رطوبة عالية .. أحراش فى كل صوب .. الشمس مطلب عزيز يستحيل وصوله إلى هذه البقعة التى غفل عنها الزمن ... حرارة ورطوبة توشك الروح أن تزهق منهما ..

كانت بعض الأبقار فى الماء تترطب ، وبعض الصبية يتبارون فى السباحة .. فقلت لـ (علاء) :

ـ « حينما يقصد الإنسان والحيوان والذباب نفس مصدر المياه ، يزدهر الوباء ويتشعب .. لهذا يتفشى داء النوم فى مواسم الجفاف حين يكون مصدر المياه محدوداً يقصده الجميع للشرب .. »

وجثوت على ركبتى وسط النباتات على حافة الماء ، ورحت أبحث بعينى هنا وهناك .. لاشىء .. واصلت البحث .. أخيراً وجدت جذع شجرة عجوز وقد احتشد الذباب مريب الشكل على سطحه الملاصق للأرض ، وغاب فى قيلولة لذيذة .. كان موضع الذباب دانيًا من الأرض حقًا بحيث يتعذر على المرء رؤيته إلاجاثيًا أو نائمًا على بطنه ..

كانت ذبابات حسنة الصحة كاملة اللياقة ، وقد هويت عليها بقطعة من الورق المقوى هناك ، ثم اخترت بعضها لأضعه فى علبة تبغ فارغة جلبتها لهذا الغرض .. كانت ميتة لكن حالتها التشريحية ممتازة ..

سألنى (علاء) وهو جاث على ركبتيه مثلى :

ـ « هل تضع بيضها فوق صفحة الماء كالبعوض ؟ »

ـ « كلا .. ذبابة (تسى تسى) تلد يرقات ولا تبيض .. فى الواقع هى تبيض ، لكن البيض يفقس داخل بطنها ، وبعد هذا تدفن اليرقات فى الطين حتى تتحور وتحلق .. »

ـ « وهل هى مرغمة على الحياة جوار الماء ؟ »

ابتسمت فى شفقة وقلت :

ـ « يا بنى العزيز .. لقد تغيرت معلوماتنا كثيرًا عن أيام (ديفيد بروس) .. إن ذبابة (التسى تسى) قد تجول بحرية فى كل مكان ، ولم تعد حبيسة ضفاف الأنهار كما كانوا يظنون قديمًا .. أعنى بالطبع أن هذا مكانها الأساسى لكنه ليس مكانها الوحيد ! »

ـ « تبًا ! .. هذا يزيد المهمة تعقيدًا .. »

ونهضنا من مكاننا ، وقابلنا أحد الفلاحين فلوّح بكفه محييًا ، وتساءل :

ـ « السلام عليكم .. هل هناك مشكلة ما يا دكتور ؟ »

كان مرتابًا بالطبع .. إن منظرنا لا يمكن أن يمرّ دون تعليق .. لكن (علاء) كان سريع البديهة فأجاب بشىء ما عن قواقع البلهارسيا التى أجمعها أنا بصفتى أدرس هذه الأمور ، ثم لوّح بذراعه وابتعدنا ..

قلت لـ (علاء) قبل أن نركب سيارتى التى تزاحم حولها وفوقها الصبية :

ـ « لن تستطيع الوصول لأحد فى وزارة الصحة أعلى مقامًا من جندى الحراسة الواقف على الباب .. أترك لى هذا الموضوع لأن لى اتصالاتى معهم .. »

* * *

- ٣ -

كان اليوم التالى صاخبًا بحق .. لقد جلست مع عدد فلكى من المسئولين أحكى القصة للمرة الألف .. لا ألومهم إن اعتبرونى مجنونًا .. إن الكلام عن ذبابة (تسى تسى) فى قرية مصرية لا يختلف كثيرًا عن الكلام عن دبّ قطبى فى ميدان (طلعت حرب) ..

لكننى كنت أملك أدلة ثابتة على كلامى : القرية موجودة ، والذباب موجود ، والمرضى موجودون .. يمكن التأكد من كل شىء ..

وقد انتقل فريق كامل من الأطباء إلى القرية البائسة ، التى راح أهلها يضربون كفًا بكف : هل حلّ بهم غضب السماء ؟ ماذا حدث بالضبط وما سرّ كل هؤلاء السادة المتحمسين المتشككين ؟

كان (علاء) معنا ، وقد ساعدنا كثيرًا فى تحديد الحالات المشتبه فى أمرها .. عرفت أن من تلدغه

الذبابة يعانى من صداع وحمى وتورم فى العنق .. وربما عقدة لمفاوية مميزة عند جذور العنق(*) ..

بدايات إصابة الجهاز العصبى لها علامة مميزة هى علامة (كيراندل) ، وتتلخص فى أن الضغط على أنسجة المريض يحدث له ألمًا بعد دقائق من زوال المؤثر .. كما يقولون فى النكات عن الرجل الذى تدغدغه اليوم فيضحك غدًا ..

وفى معامل وزارة الصحة تم البحث عن (التريبانوسوما) فى السائل النخاعى الشوكى للمرضى ، وفى دمهم ، وفى عينات غددهم اللمفاوية .. كما تم تحديد نسبة ارتفاع الجلوبيولين المناعى M ، وهو يكون عاليًا بشكل غير مسبوق لدى هؤلاء المرضى ..

كنا قد اتصلنا بمكتب منظمة الصحة العالمية ، و (النمرو) ، وقد حضر خبراؤهم بجرعات (السيورامين) و (ميل - بى) الدواءان المعتمدان لداء

(*) يسمونها علامة (ونتر بوتوم) Winter bottom

النوم ، والعقار الثانى هو هدية دكتور (إرنست فريدهايم) لمرضى النوم تعساء الحظ ، لكنها هدية مروّعة بحق .. إن أدوية هذه الأمراض الاستوائية تكون أحيانًا أخطر من المرض نفسه .. ولقد شخصنا ثلاثين حالة فقدنا منها عشرًا بسبب العلاج نفسه ..

إن (التريبانوسوما) طفيل خبيث مراوغ ، وهو ينجح فى حماية نفسه من مقاومة الجسم له بطرق عديدة .. و كلما حشد الجسم أسلحته ضده بدّل الطفيل معالمه .. إنه يفعل ذلك نحو خمسين مرة ، وهذا يرهق الجهاز المناعى للجسم كثيرًا ، ويجعله هدفًا سهلاً لميكروبات أخرى ليس الدرن أكثرها شراسة ..

يمكن القول إننا نجحنا فى حصر حالات المرض ، ولأيام تحولت القرية الفقيرة المنسية إلى خلية نحل تعجّ بالأطباء وخبراء الصحة العالمية ، ورجال الأمن ، ويبدو أن طبيبنا الشاب القادم من وحدة (سافارى) قد تعرض لضغوط مريعة ، ولاستجوابات لا تنتهى .. لكنه لم يستطع قط أن يحدّد كيفية بدء الكارثة .. فقط كان يملك تلك القصة عن الطبيب الأمريكى (جوزيف دافنبورت) .

الذى فتح صندوق (بندورا) .. صندوق (بندورا) الذى قال الإغريق إنه كان مليئًا بالأرواح الشريرة ، وفتحته (بندورا) - من باب الفضول ولأنها امرأة - لتملأ الآثام العالم ..

ولم يكن هناك شخص سواى يُكلَّف برئاسة فريق إبادة الذباب .. كنت أنا الوحيد ، لهذا صرت المرشح الوحيد ..

★ ★ ★

لم تكن مهمة سهلة ..

لقد أثبتت التجارب أن الذباب يقاوم الـ (دى دى تى) والـ (باير مثرين) والـ (سيفين) .. هذا ذباب بارع مصمم بعناية ، وأعتقد أن احتمال كونه سلاحًا بيولوجيًا تم إعداده فى المعمل .. هذا الاحتمال ليس مستبعدًا جدًا ..

أجرينا بعض تجارب ، ثم وجدنا أنه يموت إذا رششت عليه جرعة ثلاثية من ثلاث مبيدات هى (إندو سلفان) و (دلتا مثرين) و (دايلدرين) .. وكان علينا الحصول

على طائرة رش تؤدى هذه المهمة العسيرة المكلفة .. لكننى حمدت الله على أن مساحة القرية صغيرة وهذا يخفض التكلفة نوعًا (*)..

بعد هذا قمت بتنفيذ الجزء الثانى من أساليب منظمة الصحة العالمية ، وهى أننا نزعنا كل النباتات والأشجار من جانبى المصرف .. لقد قامت البلدوزرات بعمل جليل ، ألا وهو إبادة اللون الأخضر تمامًا على مسافة كيلومتر على جانبى المصرف ..

الجزء الثالث كان مؤسفًا ، ألا وهو حاجتنا إلى إبادة الماشية حتى لا تلعب دور احتياطى الطفيل ..

إن من وضعنا فى هذا المأزق قد كلفنا كثيرًا بحق ..

وفى تلك الفترة العسيرة ، كانت قوات الأمن تقف فى نطاق خارج القرية .. ومهمتها هى رشّ كل مركبة تغادر القرية للتأكد من أنها لا تحمل الذبابة المقيتة تحتها .. إن (تسى تسى) لها ولع خاص بركوب

(*) كل هذه الأساليب حقيقية ..

السيارات ، وكل من تعامل معها يدرك هذه الحقيقة المروعة ..

هل انتهينا من كل شىء ؟

بالطبع لا ..

لقد أهدانا الفرنسيون بعضًا من مصايد الذباب الخاصة بهم ، وهى تشبه قمعين متصلين من الحافة .. القمع العلوى أزرق والسفلى أسود ، وبالطبع تفوح من القمع رائحة عرق الخنازير ! لا مزاح هنا .. لقد قام الفرنسيون بتحليل عرق الخنزير وأنفاسه لمعرفة لماذا يجذب ذباب (تسى تسى) بشكل خاص .. وعرفوا أن هذه الرائحة هى خليط من غازات عضوية مع الأسيتون وثانى أوكسيد الكربون .. قاموا بتركيب ذات الرائحة لتتصاعد من مصايد لها اللون الأسود والأزرق اللذان يحبهما الذباب لسبب مجهول ..

ليست فكرة رديئة .. لقد اقتنصت المصايد ألف ذبابة خلال أسبوع ..

بعد هذا جربنا حيلة أخيرة هى الرجال الذين يلبسون

الأبيض ، مع وضع رقعة سوداء على ظهورهم .. الرقعة مغطاة بمادة لاصقة .. والفكرة هنا أن (تسى تسى) تحب ظهور الزنوج السوداء .. وهكذا يمضى الرجال ليلة كاملة فى مناطق تكاثر الذباب ، وفى الصباح تجد على ظهورهم حصيلة هائلة منه .. لقد جرب الفرنسيون هذا الأسلوب بنجاح فى مستعمراتهم ..

وكانت الخطوة الأخيرة هى تمشيط القرى المحيطة بهذه القرية ، كى نتأكد من أن الذباب لم يذهب هناك ..

★ ★ ★

وفى النهاية قلت لمديرى الطب الوقائى بالوزارة :

- « أعتقد أننا حاصرنا المرض تمامًا .. إن المرضى سيموتون أو يشفون ، ولو بقيت ذبابة واحدة حية بعد كل هذا فقد انتهى خطرها .. أنها كذباب المنازل الآن .. ثعبان بلا سمّ .. »

سألنى أحدهم :

- « وماذا لو فرّت ذبابة أو ذبابتان وهما تحملان العدوى ؟ »

- « لا أعتقد هذا لأن الذبابة لا تلعب على أرضها .. إن جو مصر لا يلائمها على الإطلاق ، وقد كانت تلك القرية فى وضع استثنائى محيّر .. »

- « والشخص الذى ورطنا فى كل هذا ؟ »

قلت فى كياسة :

- « نحن لا نعرفه .. لا يوجد دليل على شخص بعينه .. إن ما لدينا حشد من علامات الاستفهام ، لكننا نعرف جيدًا أن التسرب بدأ من منظمة دولية محترمة هى (سافارى) ، وبالذات وحدتها الموجودة فى (الكاميرون) .. وإننى قد أعددت تقريرًا عن كل ما حدث .. وفى نيتى إرساله لرئيس الوحدة ، كى يجرى تحقيقًا عاجلًا ، ويحاول منع تكرار ما حدث .. »

قال أحد الجالسين فى تهكم :

- « ليس هذا أسلوبًا للحرب البيولوجية .. أولاً هناك طرق فعالة أكثر من حفنة ذباب .. ثانيًا يمكن للدول أن تضع خططها بشكل أكثر احترافية وأكثر تعقيدًا . . »

ـ « بالعكس .. إن جمال هذه الخطـة بـالذات يكمن فى بسـاطتها وسذاجتها .. إن الخطط المعقدة تفشل دائمًا .. الطائرة الحديثة لاتستطيع الدخول من بـاب شقة ، لكن طفلاً صغيرًا يستطيع .. »

وبحثت عن تمثيل أفضل لمـا أقول فلم أجـد .. إن التعبيرات تفلت منك حين تلاحقها .. حتـى الألفـاظ تتصرف كالذباب أحيانًا ..



هذا هو كل ما أستطيع إضافته لهذه القصة ، وإننى لأرجو أن تتولى لجنـة (سـافارى) الموقـرة استنتـاج ما يمكن استنتاجه من كل ما حكيت .

د . مأمون الجندى

١٩٩٨





الجزء التالى من مذكرات د . (علاء عبد العظيم) ، ولم يرد فى أية أوراق رسمية ..

- ١ -

بعد انتهاء مهمتى مع وزارة الصحة و د . (مأمون الجندى) ؛ كانت إجازتى قد انتهت بالفعل .. الحق أنها أسوأ إجازة مرّت بى منذ التحقت بوحدة (سافارى) ..

ودّعت أهلى وودعت (أشرف) الذى فقد أباه بسبب يمت لى بصلة ، ولثمت يد أمى التى تتناقص احتمالات أن أجدها فى موضعها العام القادم .. إن الفكرة لقاتلة ؛ لكن لا مناص من العودة ..

إن (الكاميرون) منفى حقيقى .. صحيح أنها أقرب من اليابان أو أمريكا مثلاً ، لكن حاجز الحضارة يزيد المسافات بعدًا على بعد .. وكما يقول (مايكل شتون) :

« إنها ليست وثبة فى الهواء فحسب ، بل هى وثبة فى الزمن كذلك .. »

★ ★ ★

وفى (سافارى) كان الجميع قد بدأ يعرف القصة ..

كنت أحمل معى تقرير د . (مأمون الجندى) ، ومجموعة من الصور والملاحظات وبضع عينات من الذباب ويرقاته ..

وقد توجهت ـ بعد حفل الاستقبال المعهود فى الكافتيريا ـ إلى مقابلة المدير ، الذى كان قد تلقى التقرير بالبريد فعلاً ..

كان قد ازداد بدانة لو كان هذا ممكنًا ، لكن الفرنسى طيب القلب ظلّ كما هو من ناحية النشاط والاهتمام بالتفاصيل ..

ـ « هل كانت إجازة ممتعة ؟ »

كان سؤالاً من الطراز الذى لا يمكن الإجابة عنه إلا بابتسامة مريرة ..

ابتسمتها ثم قلت فى شرود :

ـ « أنا مرهق مثل (ديفيد بروس) بعد ما فرغ من مهمته .. »

فتح علبة من المياه الغازية الباردة ونـاولنى إياها ، كأن هذه ستنسينى عناء إجازتى الرهيبة ، ثم قال :

ـ « لقد قرأت الأوراق .. ولدىّ لـك سؤال واحد : ما الدليل على أن الذباب جاء من هنا ؟ »

ـ « لأننى من هنـا .. ولأن (جوزيـف دافنبـورت) من هنا .. كلانا يزور بقعة معينة فى قرية مصريـة .. بعدها يظهر الذباب للمرة الأولـى فـى تـاريخ ذبابـة (تسـى تسـى) الـذى يدرسـه الطفـل الصغير فـى المدارس .. »

ابتسم ، وقال فى رزانة :

ـ « يبدو هذا كلامًا مقنعًا .. لكن (دافنبـورت) يقول كلامًا آخر ، وهو خبير أوبئة محترم .. وعمله هو أن يكافحها لا أن ينشرها .. »

ـ « إن لدينا حقائق .. والحقيقة الأولى هى أننى لم أفعل ذلك .. »

فكر قليلاً ثم قال وهو يفتح لنفسه علبة أخرى :

ـ « ما احتمال أن يكون هذا مجرد حادث مؤسف ؟ »

ـ « لا أظن أننى حملت الذباب فى شعرى كل هذه المسافة دون أن أدرى .. إن الرجل سألنى عن قريـة معينة .. مواصفات هـذه القريـة هـى بـالضبط مـا تحتـاج إليه ذبابة (تسى تسى) لتترعرع .. الرجل كان يريـد دراسة ميدانية للقرى المصرية ، فإذا بـه يزور هـذه القرية ليفتح صندوق (بندورا) الخاص به ، وبعدها يمضى وقتًا ممتعًا فى (الغردقـة) و (أسوان) و .. لا أذكر بالضبط .. لقد نسـى كل شـىء عن الزيـارات الميدانية ببساطة لأنه أنجز مهمته .. »

رفع المدير كفه لمنعى من مزيد من الكلام ، وقال :

ـ « (علاء) .. أنت تثب كعادتك إلى الاستنتاجات .. ما تقوله خطير ولن أسمح بترديده دون دليل .. »

ثم قال وهو يقرع الجرس طالبًا السكرتيرة :

ـ سأكلفك بعض العمل الكتابى .. أريد تقريرًا مفصلاً عن تجربتك فى مصر عامى ١٩٩٦ و ١٩٩٨ .. إن هذا كفيل بإبعادك عن المشاغبات .. »

★ ★ ★

- ٢ -

بالطبع كان أول ما قمت بـه بعدهـا هو أن توجهـت إلى معمل الطفيليات ، حيث د . (هيلين ماكنلى) ..

خبيرة الطفيليات الأسكتلندية الظريفة ، السـاذجة كالأطفال ، البارعة فى عملهـا كأساطين هذا العلم .. إنها صديقة عزيزة جدًا لكنها صداقة من طرف واحد ، كالحبّ مـن طرف واحد .. أعنـى أنها ميّالـة للوحدة ولا ترحّب كثيرًا بـالمتوددين ، وهـى من الطـراز ذى النفس الثمينـة ، التـى لا تمنـح بسـهولة ، وإنمـا هـى جائزة قيمـة لمن يستحق .. ويبدو أننـى لـم أستحق حتى هذه اللحظة ..

كـان هنـاك استثناء واحد هنـا ؛ هو الاستشـارات المجانية التى تمنحها لمن يطلب قبسًا من علمها ..

كانت عندئذ ترحب بك ، وتقدّم لك قهوتهـا الخاصـة التى لا تمتّ بصلة لقهوة (سافارى) التى هى حسـاء أحذية لا أكثر ..

حملت إليها عيناتى وأسئلتى ، لكنها كـانت تملك أكثر بكثير مما توقعت ..

قالت لى :

- « إن عندى بعض عينات من ذبابة (تسى تسى) هنا .. عينات قديمة تعود إلى عامين أو أكثر .. لكن لا يمكن إثبات أنها نفس السلالة إلا عن طريق تفاعلات سلسلة (البوليمريز) .. أو PCR لو شئت الدقة .. »

دق كلامها جرسًا فى ذهنى ، فسألتُ :

- « أنت كنت تربين ذبابًا فى معملك منذ عامين ؟ »

- « نعم .. وقد سُرق المعمل ، ولربما سرق الذباب كذلك ! »

- « بهذه البساطة تقولينها .. ولم تخبرى أحدًا ؟ »

- « كان ما أقوم به غير مشروع إلى حدّ ما .. إن تـاجر العقـاقير المخدرة لا يبلـغ الشرطة عن سـرقة بضاعته .. »

وحكت لى تفاصيل عملها ، وسرقة المعمل الغريبة التى

يمكن أن نراها الآن فى ضوء آخر .. يبدو أن سارق المعمل حاول أن يتظاهر بأنه يهتم بشىء آخر غير الذباب ..

ـ « لا بد أنه مزّق السلك ثم قام بتثبيت علبة على الثقب الذى صنعه ، وانتظر فترة حتى تمتلئ العلبة بالذباب ، ثم غادر المعمل بغنيمته .. »

ـ « وتقولين إنك الوحيدة العليمة بسرّ هذه التجارب ؟ »

ـ « أعتقد ذلك .. »

ثم لعقت بلسانها شفتيها محاولة أن تتذكر ، وقالت بعد قليل :

ـ « لحظة .. كان د (إبراهام ليفى) عندى فى المعمل ، وقد حكيت له بعض تفاصيل عما أقوم به .. لا أعتقد أن أحدًا غيره كان يعرف .. »

قلت لها وأنا أنهض :

ـ « هل يضايقك لو أبلغت البروفسور (بارتلييه) بهذا ؟ إن الأمر خطير كما تعلمين .. أعنى أنه أكثر أهمية من تجارب تمت خلسة .. »

فكرت حينًا وهى تحرك قلمها كالمروحة بين أناملها ، ثم قالت :

ـ « لقد مضى عامان على هذه الأحداث .. أعتقد أننى مستعدة لقبول أى تقرير يطلبه منى .. لكنى لا أريد أن تتورط فى اتهامات لا مبرر لها .. لقد قدمت لك حقائق ؛ لكنى لا أتوقع منك أن تستنتج ما لا أريدك أن تستنتجه .. »

اتجهت للباب وقلت وأنا أفتحه :

ـ « أنا كذلك أبحث عن حقائق لا نظريات .. »

★ ★ ★



- ٣ -

لم يكن (ليفى) فى الوحدة فى تلك الفترة ..

كان قد عاد لبلا .. معذرة .. أعنى لبلاد الآخرين فى إجازته الصيفية ، وقد كنت أتحرق شوقًا لأعبر له عن حماسى الملتهب للحديث معه ..

لكنى كنت أعرف أن المدير سيطلب منه تقريرًا مفصلاً لدى عودته .. بالتأكيد ستذكر (هيلين) اسمه فى تقريرها ، وبالطبع سينكر (ليفى) أية علاقة له بالموضوع ، وسيتهمنى بكل شىء بدءًا بحصار (بابل) حتى حرق خالته فى أفران الغاز النازية ..

★ ★ ★

كان (جوزيف دافنبورت) قد أنهى عمله ، واتجه إلى المرآب كى يأخذ سيارته .. إنه يعيش فى مسكن فاخر قريب من الوحدة مع زوجته وابنه ..

إن الساعة الآن الخامسة مساءً ، وهو مرهق بحق

بعد يوم طويل من مكافحة الأوبئة .. لابد أنه فرغ من قهر الملاريا وداء الفيل ، ولو طال اليوم أكثر لقام بقهر الجذام .. لكن غدًا يتسع لكل شىء ..

دخل المرآب المظلم ومشى بين الأعمدة يبحث عن سيارته .. لم تكن هناك سيارات أخرى سوى سيارة المدير الخاصة ، وسيارة (جيديون) ؛ لأن أكثر أفراد الوحدة أنهوا يومهم ..

لا يدرى كيف ولا متى وثبت عليه من الخلف ، لألقى به أرضًا .. راح يقاوم - وكان قويًا شرسًا بحق - لكن (بسّام) زحف على الأرض ليثبت قدميه .. هكذا صار فى وضع مصلوب على الأرض بينى وبين (بسام) ، ولم يكن الأخير ضعيفًا على الإطلاق ..

- « هل جننننـ .... ؟ »

كذا صاح قبل أن أثبت قطعة كبيرة من الشريط اللاصق على شفتيه .. فراح يصدر صوت الـ (مفمف) الشهير ..

وتعاونّا علـى تقييد ذراعيـه خلف ظهره ، وتقييد قدميه إلـى بعضهمـا ، ثم سـاعدناه علـى الجلـوس .. ثلاثة أشباح فى ظلام نصف دامس ..

لم يكن يتحرك فيه الآن سوى عينيـه .. عينيـه الجاحظتين المليئتين بالمقت وعدم التصديق .. وأثـار هذا غيظى .. لو كان الخوف فيهما لكان موقفـى أكثر عسرًا وأقل إنسانية ..

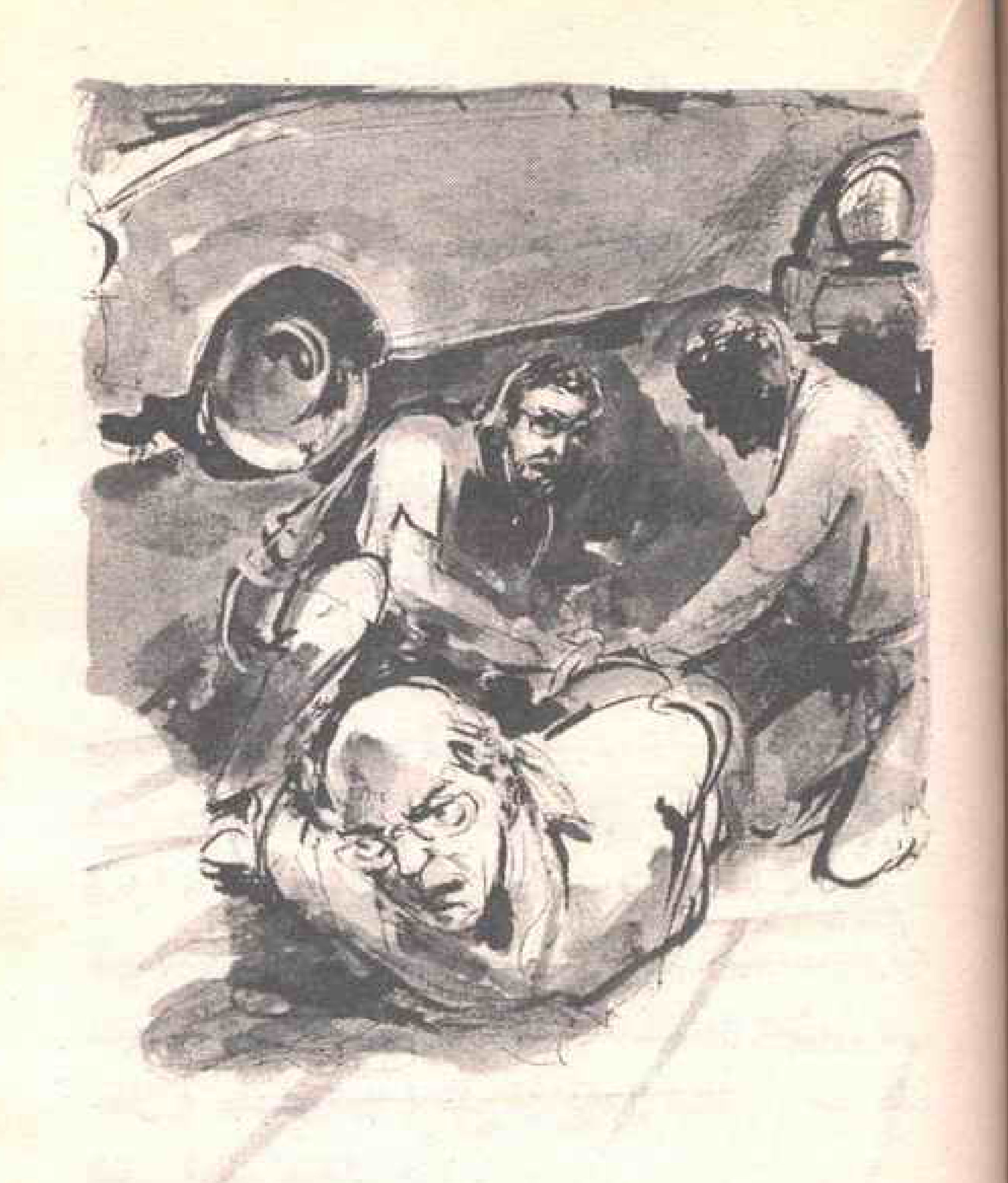
لكنه يجعل الأمور سهلة بحق ..

ومن جيبى أخرجت المحقن الملىء بالسائل الأصفر ، ولوّحت به أمام عينيه وقلت همسًا :

ـ « كلا .. لا قتل هناك .. لكنها تجربة علمية بسيطة .. يقولون إن فيروس الإيدز واهن ضعيف .. تـرى كم سنتيمترًا من المصل الحامل له يكفـى لإصابتك بـه ؟! أنها تجربة شائعة كما ترى .. »

وتأملت المحقن فى إعجاب :

ـ « هنـا عشرة سنتيمترات .. أنهـا كميـة جيدة ، وفى الغالب هى كافية لأن هذا المريض يخوض آخر



وتعاونّا على تقييد ذراعيه خلف ظهره ، وتقييد قدميه إلى بعضهما ، ثم ساعدناه على الجلوس ..

معاركه الآن .. طبعًا لا أحد يعرف أننى سرقت هذه العينة منه .. »

قال (بسام) الذى يعرف القصة كلها :

ـ « إننا سننزع الشريط اللاصق لأننا نريد منك أن تتكلم .. يمكنك أن تصرخ لكن المحقن سيكون قد أفرغ محتواه فى عروقك على كل حال ! »

وأضفت أنا حسب ما اتفقنا عليه أنا و (بسام) :

ـ « أعرف أننا سنضيع .. سنطرد من (سافارى) ولربما نُسجن .. لكن موقفنا من لحظة أسرك هذه قد صار ميئوسًا منه على كل حال .. إن السجن أقل قسوة من الإيدز الذى سيجعلك تتحلل ببطء .. سترى جسدك يتلاشى يومًا بعد يوم على مدى خمس سنوات كاملة ، ولن تستطيع النجاة .. ستتناول الكثير من عقار (زيدوفيودين) لكنه لن يفعل شيئًا .. فلو كنا طبيبى القلب لقتلناك حالاً .

ومدّ (بسام) يده ونزّع الشريط اللاصق من فوق

شفتى الأمريكى .. توقعنا أن يصرخ ، لكنه آثر الصمت وراح ينظر إلى المحقن فى توجس ..

أخيرًا سألنا مشمئزًا :

ـ « ما سرّ ألاعيب العصابات هذه ؟ ماذا تريدان ؟ »

ـ « الحقيقة ! »

قلتها فى لهجة صارمة .. وأردفت :

ـ « حقيقة ما حدث فى مصر فى صيف ١٩٩٦ .. »

صاح فى نفاد صبر :

ـ « أووه ! رباه لن نبدأ هذا ثانية ! أنت حالة متقدمة من مرض (البارانويا) .. إن العيادة النفسية سوف .. »

ـ « (بسام) ! الوريد الودجى صالح بالتأكيد .. إن يديه مقيدتان ! »

قال (دافنبورت) فى هلع :

ـ « أنت (تهوّش) .. لن تجرؤ على استعمال هذا المحقن .. »

لامست بطرف الإبرة جلده ، وقلت :

ـ « أعطنى سببًا واحدًا يمنعنى من ذلك .. »

ـ « سأعطيك سببين : الأول هو أننى لا أعرف شيئًا عن الموضوع .. الثانى هو أنكما ستدفعان ثمن هذا غاليًا .. »

لم ألفظ بحرف واحد ، وبدأت أفتح ياقة قميصه كاشفًا عن أوردة عنقه ، وفى هذه المرّة انغرس طرف الإبرة أكثر فأكثر ..

ـ « احترس أيها المخبول ! ماذا تريد معرفته ؟ »

ـ « الذباب .. من أعطاك الذباب ؟ »

ـ « أى ذباب ؟ »

ـ « ذباب (تسى تسى) .. وكف عن المراوغة ! »

بعد لحظة صمت ، قال وصوته يتحشرج :

ـ « اسمه (ماكس) .. لا أعرف شيئًا آخر عنه .. قال إنه يريد دراسة نمو هذه العينة فى بلد تحت استوائى مثل مصر .. وبما أنه عرف أننى ذاهب هناك بعد أسبوع ..»

ـ « وهل كنت تعرف أنها ذباب (تسى تسى) ؟

ـ « طبعًا .. وكان فى العلبة أرنبة صغيرة ليتغذى عليها فى أثناء الرحلة .. »

ـ « ومن قدّم لك هذا الـ (ماكس) ؟ »

ظل صامتًا ، فغرست ملليمترًا آخر من الإبرة ..

قال من بين أسنانه وهو يشهق ألمًا :

ـ « (ليفى) .. (إبراهام ليفى) .. قال إنه باحث بارع ويهمه أمره .. »

ـ « وهل كان (ليفى) يأمل فى إحداث كارثة بيولوجية بهذه الطريقة ؟ »

ضحك فى وحشية ، وقال ضاغطًا على أسنانه :

ـ « لا تكن أحمق .. لا أحد يستطيع إحداث كارثة بيولوجية ببضع ذبابات .. لقد كان صادقًا فى نية الدراسة .. »

ـ « عن طريق قتل بعض القرويين الأبرياء ؟ »

- « لم يخطر هذا بباله ولا ببالى .. إن كل تجربة لها آثارها المؤسية ، ولا بد من النار كى تصنع الحلوى .. فكر فى كل الهنود البؤساء الذين لدغهم بعوض (روسّ) فى أثناء بحثه عن سرّ الملاريا .. »

- « ولماذا لم يجرّب فى بلده بدلاً من التجربة فى بلاد الآخرين ؟ »

قال فى نفاد صبر وقد تصلب عنقه :

- « هذا هو ما حدث بالضبط .. اقبله أو ارفضه .. خذه أو اتركه ..

لست مطالبًا بإعطاء تفسيرات لأمثالك .. لقد قمت بتجربة إرضاءً لزميل عزيز ، وكان الأمر هينًا بسيطًا .. »

ثم نظر إلى (بسام) وقال آمرًا :

- « الآن أيها العربى قد أخذتما ما تريدان .. حان الوقت لإنهاء هذا الموقف السخيف .. »

قلت وأنا أحرك الإبرة أكثر :

- « دعه ير جهاز التسجيل يا (بسام) .. »

أخرج (بسام) جهاز التسجيل الصغير من جيبه ، ولوّح به أمام أسيرنا فى انتصار ، وقال :

- « إن لدينا هنا اعترافًا كاملاً منك .. والصفقة التى عليك قبولها هى أن تظل صامتًا .. نحن لم نقابلك ولم نتحرش بك ، وأنت لم تقل شيئًا .. »

ابتسم دون أن يحرك عنقه ، وقال :

- « أحبّ هذا النوع من الصفقات .. ليكن .. أنتما لم تعتديا علىّ .. لم تقيدانى كالذبيحة .. لم تلعبا بى ألعابًا سادية قذرة .. موافق .. »

قلت له وأنا أرتجف حقدًا :

- « حين يعود (إبراهام ليفى) قل له إن انتقامى سيكون شنيعًا .. لن أحدّد متى ولا كيف .. دعه يتساءل .. دعه يضرب أخماسًا بأسداس .. سيكون انتقامى جديرًا بالأساطير الإغريقية ، ولن تكون المحاقن المليئة بفيروس الإيدز هى أفظع ما فى الموضوع .. »

ابتسم فى لزوجة ، وقال :

ـ « جميل .. جميل .. والآن يمكنك أن تبعد هذا المحقن عنى .. »

نظرت لـ (بسّام) ، وببرود قلت :

ـ « (بسام) .. أنا لا أستطيع التحكم فى نفسى .. لا بد من قتل هذا الوغد ! »

صاح (بسام) فى هلع :

ـ « لا .. لا تفعل ! لقد تكلَّم ! »

وكذا صاح الأمريكى فى عصبية بعبارة مختلطة لم أتبينها ، لكنى على كل حال أفرغت المحقن كله فى وريده ..

وفى اللحظة التالية شهق ، وسقط رأسه على صدره ..

إن أعصابه لم تتحمل كل هذا الهول ..

دنا منى (بسّام) وربَّت على كتفى :

ـ « جميل .. لقد قلنا كل حرف اتفقنا عليه فى السيناريو .. لكنك نسيت عبارة (فليعلم أنِ العرب لا ينسون ولا يغفرون) حين تحدثت عن (ليفى) .. رباه ! لم أتوقع أن أعصاب هذا الرجل مُرهفة إلى هذا الحدَ .. »

قلت لاهثًا وأنا أضع المحقن الفارغ فى جيبى :

ـ « لا ألومه كثيرًا .. »

سمعنا جلبة بالخارج ، فرُحنا ـ فى الظلام ـ نمزق قيود الرجل ، وهرعنا خارجين من المرآب مبتعدين ..

فقط تركت جوار الرجل وريقة كتبت عليها بالإنجليزية وبخط واضح :

ـ « لماذا يفقد إنسان وعيه حين يحقنه أحدهم بفيتامين (ك) ؟ إن الأمر لا يستحق كل هذا الهلع .. ألا ترى هذا معى ؟ ! »

★ ★ ★

الآن دورك يا (إبراهام ليفى) !

سيكون انتقامًا رهيبًا .. لكنى لن أفعل شيئًا الآن ..

ليس بعد ..

سأنتظر فى صبر .. فى هدوء .. فى تروّ ..

سأنتظر حتى تغفل أنت .. وعندها ..

متى ؟ لا أعرف .. ربما بعد أشهر .. ربما بعد عام ..

لكن اللحظة قادمة لا ريب فيها ..

★ ★ ★

نهاية التقرير

كما ترى اللجنة الموقرة التى طلبت منى هذه التقارير كلها ؛ فإن د . (ليفى) و د . (دافنبورت) يؤكدان تمامًا أنه لا علاقة لهما بما حدث ..

د . (هيلين ماكنلى) تقول إن الأول يعرف بتجاربها ، لكنها لم تتهمه بشىء ..

لقد انتظرت عودة د . (ليفى) من إجازته كى أطلب شهادته فى هذا الموضوع ، وكما هو موضح فى الأوراق فإن المذكور ينفى أى دور له فى القصة ، لكنه مصرّ على أن نفكر من جديد فى عدم تجديد عقد الدكتور (علاء عبد العظيم) .. لقد صارت الفكرة مسيطرة متسلطة عليه ، وهو يهدد صراحة بأنه تارك الوحدة ما لم يتركها د . (عبد العظيم) ، ويؤكد أن الطبيب المصرى خطر داهم على حياته ..

بسؤال د . (علاء عبد العظيم) ؛ كان بشوشًا متسامحًا وقال بالحرف :

ـ « إننى أسحب ما قلته بصدد د . (إبراهام ليفى) إنه سوء فهم بسيط ، وأنا الآن أعرف يقينًا أنه لم يفعل

شيئًا مما حسبته فعله .. إن لدىّ دليلاً ماديًا قويًا لكنى لن أفصح عنه لأسباب تتعلق بى .. وإن صداقتى للرجل لأقوى من الأوراق واللجان .. لهذا أعده بأن نسوى الأمور بشكل شخصى بعيدًا عن التحقيقات ، ولسوف تكون تسوية تسعد قلبه بحق ، وتعبّر عن احترامى العميق له ، ولن ينساها أبدًا .

« لقد قدمت اعتذارًا رقيقًا للدكتور (دافنبورت) ، ولسوف يكون اعتذارى للدكتور (ليفى) أكثر رقة ومودة .. »

قلت هذا كله للدكتور (ليفى) ، فلم يزده هذا إلا عصبية وتوترًا ..

الحق أننى لا أفهم ما يدور بذهنه ..

أما عن د . (دافنبورت) فقد أعلن عن رغبته فى ترك الوحدة .. إنه عائد إلى الولايات المتحدة حيث يقول إن عملاً ينتظره فى (أطلنطا) . وقد فشلت كل محاولاتنا لإقناعه بالبقاء .

من الغريب كذلك أن وسواس الإصابة بالإيدز قد سيطر

عليه ، وجعله يجرى كل الأبحاث الممكنة مرارًا وتكرارًا ، برغم ثقتنا الكاملة من سلامته وسلامة التحاليل الخاصة به .

★ ★ ★

هذا هو التقرير الذى طلبته منى اللجنة بصدد الأحداث المؤسفة التى وقعت فى (سافارى) مؤخرًا ..

فى رأيى الخاص أن ما حدث كان خطأ ، ومن العسير أن نحدد هنا أسمًا بالذات نعلق على كاهله هذا الخطأ .

ربما وبخت د . (ماكنلى) على قلة حرصها ، أو وبخت د . (عبد العظيم) على تسرعه وسخائه فى إلقاء الاتهامات .. لكنى لا أجد من أتهمه ببدء كارثة بيولوجية يعلم الله ما كانت ستنتهى إليه ، لولا كفاءة رجال علم من وزن د . (مأمون الجندى) ودقة ملاحظة طبيبنا المشاغب (علاء عبد العظيم) ..

إن القارة السوداء ما زالت غامضة كالموت ، وما زالت ملأى بالكوارث التى تنتظر أن تحدث .

ولعلى أزعم أن مهمة (سافارى) الأولى والأخيرة هى منع حدوث هذه الكوارث .. فإن حدثت كانت مهمتها تخفيف مسيرة الآلام والدموع والدماء التى تقود القارة نحو مزيد من المعاناة .

موريس بارتلبيه M.D
سافارى ـ ٤
١٩٩٨





روايات مصرية للجيب

سافارى

تى تى !

إن الكلام عن طبق الطعام بدلاً من التهامه حماقة ، والحديث عن هذه القصة بدلاً من قراءتها مباشرة مضيعة للوقت .. ومابين ابتلاع أول قضمة وقراءة أول صفحة ، يمكننا أن نعرف كل شيء .... !



د. أحمد خالد توفيق

وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة

العدد القادم
إنهم يعودون أحياناً !